

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي



جامعة محمد بوضياف - المسيلة
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة العربية والأدب العربي

الرقم التسلسلي:

رقم التسجيل: ط1: 1535110648

رقم التسجيل: ط2:

مذكرة مقدمة ضمن متطلبات نيل شهادة الماستر تخصص لسانيات عامة
بعنوان:

الجهود اللغوية لابن خلدون من خلال كتابه المقدمة

إعداد الطالبتين:

بوجلال سعيدة

سباع إلهام

أمام لجنة المناقشة المكونة من السادة الأساتذة:

الصفة	الجامعة	الرتبة	اسم ولقب الأستاذ
رئيسا	جامعة المسيلة		
مشرفا ومقررا	جامعة المسيلة		د/ أحمد لعويجي
مناقشا	جامعة المسيلة		

السنة الجامعية 1440-1441هـ/2019-2020م.

دعاء

اللهم لا تجعلنا نصاب بالغرور إذا نجحنا ولا باليأس إذا
أخفقنا وذكرنا أن الإخفاق هو التجربة التي تسبق النجاح.
اللهم إذا أعطيتنا نجاحا فلا تأخذ منا تواضعا، وإذا أعطيتنا
تواضعا فلا تأخذ منا اعتزازنا بكرامتنا.

ربنا تقبل دعاءنا... آمين.

شُكْرٌ خَاصٌ

إلى بداية الغيث وأولى قطرات إنتاجنا الفكري، الشكر لله الذي
أعاننا على إكمال هذا العمل. تشكرات نرفعها من ضمير الذات إلى كل من
أسهم معنا في إعداد هذه المذكرة التي أردناها غذاء للعقل وتقوية للطموح،
فجزيل الشكر للأستاذ المشرف "لعويجي أحمد"
على توجيهاته ونصائحه القيمة لنا وسماحة معاملته وخاصة على صبره معنا.
شكرا لكل أساتذة قسم اللغة الأدب العربي بجامعة المسيلة، وشكرا لكل
من أسهم معنا في إخراج هذه المذكرة إلى النور وساعدنا على إنجازها
سواء من قريب أو بعيد.

إهداء

الحمد لله الذي أنعم عليّ نعمة حمده وشكر عبادته.
إلى من كانا عوناً لي في طفولتي وسنداً لي على مرّ الأيام... والديّ.
إلى من أتقاسم معهم بكاء الحياة وضحكها. . أخي، أخواتي.
إلى من علمني العزم والإصرار، إلى العاطفة الصادقة التي أثار طريق
حياتي بكل إخلاص.. إلى زوجي سيد باديس.
إلى من كان صاحب الفضل علي ولم يبخل بدعمه وتوجيهاته في
رحلة بحثي، أستاذي المشرف.
إلى اللواتي لا أمل صحبتهن ورفقتهن زميلاتي..
إلهن جميعاً أهدي جهدي
المتواضع هذا وأرجو من الله
تعالى التوفيق.

إلهام

إهداء

الحمد لله الذي وفقنا لهذا ولم نكن لنصل إليه لولا فضل الله
علينا، أما بعد:

إلى رجل الكفاح، إلى من زرع القيم والمبادئ الإسلامية،
إلى من أفنى زهرة شبابه في تربية أبناءه... والدي الحبيب.

إلى القلب النابض، إلى رمز الحنان والحب والتضحية، إلى من
كانت دعواتها الصادقة سر نجاحي... أمي الغالية.

إلى أستاذي المشرف لعويجي أحمد.

إلى رفيق عمري وزوجي الغالي وليد.

وإلى أفراد أسرتي، سندي في الدنيا ولا أحصي لهم فضلا.

إلى كل أقاربي والأصدقاء والأحباب دون استثناء.

إلى أساتذتي الكرام وكل رفقاء الدراسة.

وفي الأخير أرجو من الله تعالى أن يجعل عملي هذا نافعا

يستفيد منه جميع الطلبة المتربصين المقبلين على التخرج.

سعيدة

المقدمة:

الحمد لله ذي القوة المتين، خلق الإنسان علمه البيان وأقدره على التبيين، والصلاة والسلام على محمد صفوة النبيين وإمام المرسلين وعلى آله وصحبه الغر الميامين وعلى من اقتفى سبيلهم واهتدى بهديهم إلى يوم الدين، أما بعد:

شغلت اللغة كثيرا من العلماء والمفكرين والفلاسفة حتى غدت علم العصر فهي تدرس الجوانب اللغوية دراسة علمية بعيدا عن الانطباعات القيمة التي انتشرت في العصور السابقة. ولعل الاهتمام باللغة والجهود البارزة في العصر الحديث مرده إلى رغبة الإنسان في تلمس أسرار اللغة والوقوف على تجلياتها وبيان جهودها فهي الوسيط في التبادل الكلامي كانت ومازالت هي الشغل الشاغل للإنسان فتراه دائب البحث في أعطافها واستلهاام معاشه منها. والتوق إلى اقتناص أسرارها ولهذه اللغة جهود متعددة الأشكال في إطار الدراسات اللغوية الكثيرة والمختلفة.

وقد كانت اللسانيات بمثابة الوسيلة الناجعة ليكون البحث اللساني سهل المأخذ يسير التعاطي. وتبقى الإشارة إلى أن علم اللسانيات ممتد في أبعاد رحبة تعطيها سعة وجدلا لا ينتهيان.

ولا شك أن التراث اللغوي العربي الإسلامي القديم ثري بجهود لغوية راقية جلية متواضعة. طالما كان هدفها الإلمام بجوانب العلم والمعرفة ونشر ثقافتها. ولقد تعددت تلك الجهود والقضايا بتعدد هذه الشخصيات الفذة ومنهم ابن خلدون الذي يعد من أبرز علماء العرب الذين زودوا الفكر التعليمي بمقدمات منهجية تساعد كل راغب في تقويم إرساء التعليم على إرساء الفكر التداولي. وتعددت جهوده في مجالات علمية مختلفة: العلوم اللسانية والعلوم الشرعية، والعلوم الطبيعية، والمنطق والفلسفة وهذا كله يوحي بأن لديه ثروة علمية، وذلك يرجع إلى انكبابه على تحصيل العلم منذ نشأته الأولى. ومن بين الجهود اللغوية التي اهتم بها ابن خلدون ذات الطابع اللغوي والذي لفت انتباهي من خلال كتابه المقدمة. تلك

الجهود اللغوية التي استعملها في متن كتابه والتي تمثلت وتداولت في الوسط اللغوي، علم اللغة، علم النحو، وعلم البيان. إنه الصعب في بعض الأحيان أن نعثر على مفهوم بعض الجهود المتداولة على لسان ابن خلدون إلا أن ذلك لم يثن من عزيمة بل زادنا حيوية وإرادة من أجل إثبات أن ما توصل إليه العقل العربي لم يكن بالأمر الهين.

على هذا الأساس اخترنا هذا الموضوع الذي جاء مسندا للدراسات السابقة من علوم اللغة كعلم النحو، وعلم البيان ... فجاء هذا البحث ليوصل خطوات التراث اللساني بدراسة جهوده اللغوية وإبرازها في حلة أصيلة، عنوانها ب: (الجهود اللغوية عند ابن خلدون من خلال كتابه المقدمة) واختيارنا لهذا الموضوع لم يكن اختيارا تلقائيا بل عن وعي وقصد ذلك لأن العطاء العلمي الذي تميز هذا الرجل لا متناه وذلك ما أهله لكي يكون معلم العقل والأدب بلا منازع أما مادة الكتاب فهي متجددة ومتنوعة.

وفي محاولة إمامنا بهذا الموضوع انطلقنا من عدة تساؤلات خاصة بالمادة اللغوية للكتاب على رأسها: ما هو مفهوم الجهد اللغوي؟ وفي ما تمثلت هذه الجهود التي وظفها ودرسها ابن خلدون وذكرها في كتابه المقدمة؟ وكيف أسهمت في إثراء الدرس اللساني الحديث؟

هذا وقد اشتملت خطة البحث على مقدمة وفصلين وخاتمة، ووسمنا الفصل الأول ب: (الجهود اللغوية عند العرب) جاعلين إياه على ثلاث مباحث، المبحث الأول بعنوان: (حد كلمة الجهود لغة واصطلاحاً) وجاء المبحث الثاني ب: (عنوان "مفهوم اللغة وخصائصها) أما المبحث الثالث، فب: عنوان (أشكال الجهود اللغوية عند العرب).

وتطرقنا في الفصل الثاني إلى الجهود اللغوية لابن خلدون في اللغة والنحو والبلاغة لتتعرف على ماهية اللغة وكيفية الاهتمام إلى وضعها وطرق اكتساب ملكتها ودور المؤثرات الاجتماعية والسياسية والدينية في حفظ أصولها، كما تبيننا موقف ابن خلدون من النحو الذي عرض فيه لأسباب نشأته ودوره في ضبط نواميس اللغة وموقفه من النحاة ومناهجهم.

واعتمدنا في هذا البحث المنهج الوصفي وذلك لأنه يتناسب وموضوع بحثنا، إضافة إلى ذلك لجأنا إلى آلية من آليات هذا المنهج والمتمثلة في التحليل والذي اعتمدنا عليه في توضيح بعض المدلولات.

هذا وقد تطلّب هذا البحث اللجوء إلى عدد غير يسير لإثرائه والتعمق في بيان الجهود اللغوية لابن خلدون والكشف عنها ولعل أهمها: (المقدمة) لابن خلدون و(معجم الأدباء) لياقوت الحموي و(لسان العرب) لابن منظور و(الخصائص) لابن جني، ومن أبرز المراجع المعتمدة (مدخل إلى علم اللغة) لإبراهيم خليل.

وككل بحث فإنه لا يخلو من الصعوبات وهذه الصعوبات لا تخرج في مجملها عن تلك التي يمكن أن يلقاها أي باحث وتتمثل في ضيق الوقت، عدم توفر المصادر والمراجع الكافية وصعوبة تحليل بعض المواد في الكتب التراثية ودراساتها. إضافة إلى تشتت وكثرة الآراء حول هذا الموضوع حيث تعذر الإلمام به كله إضافة إلى صعوبة أو استحالة مواكبة مختلف الأبحاث التي تتدرج ضمن هذا الموضوع أو ما كان في إطاره العام للاستزادة منه والأخذ ببعض آرائه الموافقة للبحث.

ونسأل الله أن يوفقنا وأن يلقى ما كتبنا القبول الحسن فهو ولي التوفيق.

الفصل الأول

الجهود اللغوية: مفهومها وأشكالها عند العرب

المبحث الأول: حد كلمة (الجهود) لغة واصطلاحاً

المبحث الثاني: مفهوم اللغة وخصائصها

المبحث الثالث: أشكال الجهود اللغوية عند العرب

المبحث الأول: حد كلمة (الجهود-- لغة واصطلاحاً):

المطلب الأول: حد كلمة (الجهود) في اللغة:

«جُهُودٌ (اسم): جُهُودٌ: جمع جُهدٍ

جَهْدٌ: (اسم): الجمع: جهود، الجَهْدُ: المشقَّةُ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذُ من جهدِ البلاء، الجَهْدُ: النهاية والغاية.

- لم يَأَلُ جَهْدًا: لم يُقَصِّرْ، وجَهْدُ البلاء: كثرة العيال والفقر، قصارى جُهدِه: أقصى ما يملكمن إمكانات»¹.

- جَهْدٌ: الجَهْدُ والجُهدُ: الطاقة، نقول: اجْهَدْ جَهْدَكَ، وقيل الجَهْدُ المشقَّةُ والجُهدُ الطاقة.

الليث: الجَهْدُ ما جهد الإنسان من مرض أو أمر شاق، فهو مجهود قال: والجَهْدُ لغة بهذا المعنى.

وفي حديث أم معبد "شاة خلفها الجهد عن الغنم، قال بن الأثير (ت 630هـ) تكرر لفظ الجَهْدُ والجُهدُ في الحديث، وهو بالفتح المشقَّةُ"، وقيل: المبالغة والغاية، وبالضم الوسع والطاقة، وقيل: هما لغتان في الوسع والطاقة، فأما في المشقَّة والغاية فالفتح لا غير، ويريد به في حديث أم معبد في الشاة الهزال، ومن المضموم حديث الصدقة أي الصدقة أفضل قال: جُهدُ المقلّ أي قدر ما يحتمله حال القليل المال. وجهد الرجل إذا هزل.

قال سيبويه (ت 180هـ): «وقالوا طلبته جُهدك، أضافوا المصدر إن كان في موضع الحال كما أدخلوا فيه الألف واللام حين قالوا: أرسلها العراك، قال: وليس كل مصدر مضافاً كما أنه ليس كل مصدر تدخله الألف واللام»².

¹ - معجم المعاني الجامع - معجم عربي عربي (www. almaany. comar) dict ar- جهود محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين، الجمعة، 2016/12/16، 20:02.

² - ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت، مج 3 مادة (جهد) ج 3، مادة (ج-ه-د).

وَجَهْدٌ، يُجْهَدُ جَهْدًا وَاجْتَهَدَ، كلاهما: جَدٌّ، ويقال: أَجْهَدَ لَكَ الطَّرِيقَ وَأَجْهَدَ لَكَ الْحَقَّ أَي بَرَزَ وَظَهَرَ وَوَضَحَ وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو بْنِ الْعَلَاءِ (ت 154هـ): حَلَفَ بِاللَّهِ فَأَجْهَدَ وَسَارَ فَأَجْهَدَ. وَيَكُونُ فَجْهَدَ. الْجَهَادُ: الْأَرْضُ الْمَسْتَوِيَّةُ، وَقِيلَ الْغَلِيظَةُ، وَتُوصَفُ بِهِ فَيُقَالُ أَرْضٌ جِهَادٌ وَالْاجْتِهَادُ وَالتَّجَاهُدُ: بَذْلُ الْوَسْعِ وَالْمَجْهُودُ، وَفِي حَدِيثٍ مَعَاذُ: «اجْتَهَدَ رَأْيَ الْاجْتِهَادِ وَبَذَلَ وَسْعَ فِي طَلَبِ الْأَمْرِ، وَهُوَ افْتِعَالٌ مِنَ الْجَهْدِ الطَّاقَةِ».¹

المطلب الثاني: حد كلمة (الجهود) في الاصطلاح

يمكن تعريف الجهود بأنها بذل الوسع والطاقه، وتحمل المشقة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونشر الدين الإسلامي وتبليغه للناس ليلتزموا به. قال الله تعالى ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾²، والاجتهاد: «أخذ النفس ببذل الطاقه، وتحمل المشقة».³ يقال: «جهد الرجل في الشيء: أي جدّ فيه وبالغ».⁴

المبحث الثاني: مفهوم اللغة وخصائصها

المطلب الأول: مفهوم كلمة (اللغة) في اللغة:

اللغة كلمة مشتقة من الجذر الثلاثي لغو يلغو ففي سورة فصلت يرد قوله -تعالى- على لسان بعض المشركين ممن تغامزوا على القرآن الكريم: ﴿وَالْعَوَا فِيهِ﴾ أي قولوا فيه كلاما نكرا، وقال تعالى ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾.⁵

¹ - ابن منظور، لسان العرب، مادة (ج-ه-د).

² - سورة الأنعام، الآية 109.

³ - الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق وضبط، محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، ص 101

⁴ - أبو السعادات ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق، طاهر أحمد الراوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، مادة (جهد).

⁵ - المؤمنون الآية 3.

وأغلب الظن أن الكلمة لم ترد بهذا المعنى في الشعر، وإن وردت كلمة (اللغو) بالمعنى السابق، أي القول الذي لا خير فيه، ولا يعتد بقيمته قال الفرزدق (ت110هـ) وهو من شعراء العصر الأموي في هذا الصدد:

وَأَسْتَبِمَأْخُودٍ بِلَغْوِ تَقْوَلُهُ... إِذَا لَمْ تَعَمَدَ عَاقِدَاتِ الْعَرَائِمِ¹

المطلب الثاني: مفهوم كلمة (اللغة) في الاصطلاح:

يبدو أن كلمة "اللغة" شاعت في القرنين الرابع والخامس الهجريين، وتداولها اللغويون والبلاغيون، فابن سنان الخفاجي (ت 466هـ) في كتابه (سر الفصاحة) يعرف اللغة قائلا: «اللغة هي ما يتواضع القوم عليه من الكلام»².

وذلك أنهم ذهبوا إلى أن أصل اللغة لا بد فيه من المواضعة، فقالوا: بأنه كان يجتمع منهم حكيمان، أ وثلاثة فصاعدا، فاحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء والمعلومات، فوضعوا لكل واحد سمية أي لفظا.

أولا: تعريف اللغة عند ابن خلدون

لقد تناول ابن خلدون تعريفا للغة في كتابه (المقدمة) في فصل تحت عنوان (في علوم اللسان العربي)، فقال: «اعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد لإفادة الكلام، فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها، وهو اللسان، وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم»³.

منذ اكتشاف قيمة محاضرات دي سوسير الذي اعتبره الدارسون الأب الحقيقي لللسانيات، حيث أنه هو أول من درس اللغة في ذاتها ولذاتها ولكن المتمعن في التراث اللغوي العربي القديم يلاحظ أن لهذا الأخير دورا مهما في التفريق بين اللغة كنظام في حد

¹ الفرزدق، ديوان الفرزدق، تح علي فاعور، دار الكتب العلمية، ط1 بيروت 1987، ج2، ص 11.

² ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، تح، عبد المتعال الصعيدي مطبعة علي صبيح، مصر، القاهرة 1953م، ص314.

³ عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، تح: عبد الله محمد درويش، ج 2، دار پعرب، (ط 1)، دمشق، 2004، ص367.

ذاته وبين الأداء اللغوي الذي يظهر في الممارسة الفعلية التي تتجلى كنشاط فردي نابع من الفرد المتكلم ضمن سياق معين. « ففي رأي دي سوسير اللغة نتاج اجتماعي بملكة اللسان ومجموعة من التقاليد الضرورية التي تبناها مجتمع ما يساعد أفرادها على ممارسة هذه الملكة»¹ ونجد أن التراث العربي القديم له فضل السبق في التفريق بين اللغة كنظام مستقر في ذهن جماعة تتبنى نفس اللغة، وبين الأداء اللغوي الذي يبرز ويظهر في الممارسة الفردية حيث كانت للعرب طريقتهم في أداء الكلام.² فاللغة هي القدرة العقلية التي تسمح للبشر بإجراء السلوك اللغوي لتعلم اللغات وإنتاج الكلام وفهمه. فهي نظام أو مجموعة أنساق تبنى عليه مجموعة أصوات الشيء الذي لا يمكن أن يقبل التجزئة.

ويعرفها كذلك محمد حسن عبد العزيز: «اللغة نظام من الرموز المنطوقة المكتسبة تستخدمه جماعة معينة من الناس بهدف الاتصال وتحقيق التعاون فيما بينها»³.

إن هذا التعريف الذي ارتضاه محمد حسن عبد العزيز قد جاء في نهاية البحث التمهيدي الذي عقده حول خصائص اللغة في كتابه (مدخل إلى علم اللغة) وتلك الخصائص هي:

1. اللغة ظاهرة إنسانية: وذلك إذا كانت الحيوانات يتصل بعضها مع بعض عن طريق الصياح أو الإشارات فهذا كله يختلف اختلافا نوعيا عن اللغة الإنسانية.
2. اللغة أصوات: فهي منطوقة أساسا أما الكتابة فهي ثانوية.
3. اللغة نظام: وهذا يعني أنه لكل لغة من لغات البشر نظام صوتي ونظام صرفي ونظام نحوي، وقائمة من المفردات تضم ما تستخدمه الجماعة اللغوية من كلمات.

¹ - احمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات دار الفكر ط1 سوريا، دمشق 2001م، ص11.

² - نسيمة نابی، مناهج البحث اللغوي عند العرب في ضوء النظريات اللسانية، مذكرة لنيل درجة الماجستير، تيزي وزو، 2010 / 2011 م، ص 35.

³ - محمد حسن عبد العزيز، مدخل إلى علم اللغة، دار الفكر العربي، دط، مدينة نصر، القاهرة، 2000ء، ص 19.

4. اللغة رموز: (الصوت أو منطوق) يقول محمد حسن عبد العزيز: «إن الأصوات هي مادة اللغة هذه الأصوات رموز أي بدائل تستخدم في الإشارة إلى أشياء ليست هي الأصوات ذاتها، وليست ثمة علاقة بين المنطوق (قلم) والشيء المشار إليه وهو القلم ذاته».¹

5. اللغة عرفية: فالعلاقة بين اللفظ وما يشير إليه علاقة عرفية متفق عليها بين المحدثين بهذه اللغة.

6. اللغة متغيرة: فهي ظاهرة اجتماعية والظواهر الاجتماعية ليست ثابتة بل تتغير باستمرار.

7. اللغة معنى (أو مفهوم): إذا المعنى هو الجانب الثاني من جانبي اللغة، وأما الجانب الأول فهو الصوت والمشكلة الرئيسية في علم اللغة هي تحديد العلاقة بين جانبي اللغة (الصوت أو المنطوق) أو جانب المعنى أو المفهوم.²

إن لغة عدة مفاهيم، ولقد اختلف العلماء في تعريفها وليس هناك اتفاق شامل على مفهوم محدد لها، ويرجع السبب في ذلك إلى كثرة التعريفات وتعددتها وإلى ارتباط اللغة بكثير من العلوم الأخرى، وأول من عزّف اللغة هو أبو الفتح عثمان بن جني في كتابه الخصائص، فقد سبق تعريفه بالذكر من قبل وهذا التعريف يبدو أكثر إحاطة من بعض التعريفات العصرية.

ويعرفها كذلك تمام حسان بأنها: «منظمة عرفية للرمز إلى نشاط مجتمع»³ فاللغة نظام صوتي يمتلك سياقاً اجتماعياً وثقافياً له دلالاته ورموزه وهو قابل للنمو والتطور يخضع في ذلك إلى الظروف التاريخية والحضارية والتي يمر بها المجتمع.

¹ - محمد حسن عبد العزيز، مدخل إلى علم اللغة، ص 16.

² - المرجع نفسه، ص 15، 16.

³ - تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص 34.

المطلب الثالث: خصائص اللغة ومنهجها

أولاً: خصائص اللغة

يمكن حصر خصائص اللغة العربية في أسس وقواعد علمية ويمكن أن ننظر إليها من زوايا ثلاث وهي:

1. البناء الداخلي.

2. خصائص تتعلق بالجانب التراثي المعرفي والروحي.

3. خصائص شعرية إيحائية، وسوف نأخذ البناء الداخلي بما في ذلك القواعد والأصول التي تنهض عليها اللغة من الناحية النحوية أو الصرفية أو الصوتية أو البلاغية أو المعجمية أو ما يتعلق بفقهاء اللغة وعلومها.

مبدأ الاعتدال: الذي بنيت عليه اللغة العربية، « فأكثر كلماتها وضعت على ثلاثة أحرف قليل منها أصله رباعي، أو خماسي لكي لا يطول النطق ويعسر فلم يكثر من الألفاظ الثنائية خشية من الكلمات في العبارة الواحدة فيضعف من الكلام ويحدث فيه ما يشبه التقطع المتوالى الألفاظ المكونة من حرفين وقد خرجت بعض اللغات عن الاعتدال»¹.

ومن خصائص اللغة أيضاً اتساع معجمها، فالمعنى الواحد وضعت له ألفاظ متعددة لتكثير وسائل التفاهم، وحتى يجد المتكلم سهولة وعدم التوقف أثناء الخطاب، فإذا غاب عنه لفظ كان بوسعه أن يأتي بمرادفه وإذا كان لا يستطيع النطق بكلمة كالألثغ لجأ إلى كلمة مرادفة لها كما فعل واصل ابن عطاء الذي لم يكن يحسن النطق بالراء، فألقى خطبة بكاملها دون أن يذهب إلى الكلمات التي تحتوي على حرف الراء، وقد أدى وجود ظاهرة الترادف في اللغة إلى الخطاب، والكتاب من التكرار مثال ذلك، قول معاوية: « من لم يكن من بني عبد

¹ - مفهوم اللغة وخصائصها الصحفي نت، Asafhi. yooch. com alsafhinet، الاثنين 2016 / 12 /

المطلب جوادا فهو دخيل» واستعاض عنها بكلمتين مرادفتين، وللغة طريقة عجيبة في التوليد جعلت آخر هذه اللغة متصلا بأولها في نسيج ملتحم من غير أن تذهب اللغة العربية نستق المكتبة (اسم المكان من الكتاب والكتابة التي (book). بينما لا علاقة بين التي تعني كتابا في اللغة الانجليزية والتي تعني مكتبة (Liprory).

ومن خصائص اللغة كذلك أن الكلمة الواحدة فيها تحتفظ بدلالاتها المجازية والواقعية دون التباس بين المعنيين، وهي لغة المجاز والمجاز كما هو معروف الخاصة الأولى للغة الشعر وليس المجاز ما يشغل ذهن المتكلم إذ سرعان ما ينتقل المتلقي بذهنه إلى المعنى الأصلي. فمثلا لو قال شخص عن آخر: أنه (أسد) فسوف يفهم السامع مباشرة أن المقصود من ذلك هو الشجاعة.

ولو لاحظنا اللغة لوجدنا أنه يكثر فيها اقتران المعاني الحسية بالمعاني المجردة وانتقال المفردة من معنى إلى آخر لا يلغي المعنى السابق لذلك فإن لغتنا لا تحتاج إلى التسلسل التاريخي في وضع معاجمها الحديثة لأن معانيها في الغالب لا تهجر بل تستخدم كلها وفقا لسياقاتها المتنوعة.

ثانيا: منهج اللغة في التراث العربي

يرى الباحثون أن النظرية اللغوية العامة في التراث العربي تقوم على إجراءين بارزين هما التصنيف والتحليل، هذا إلى جانب الإجراء الوصفي الذي نفاه بعض الدارسين عن تراثنا اللغوي العربي وكذا إجراء المقارنة التي تعد مقدمة ضرورية للتصنيف.¹

المبحث الثالث: أشكال الجهود اللغوية عند العرب

منذ أواخر القرن التاسع عشر أخذ مفهوم - اللغة - طبيعتها ووظيفتها، ودراستها في التغير، وقد أحدث ذلك التغيير جهودا متلاحقة بذلها علماء الغرب لدراسة معظم لغات العالم وصفا تاريخيا ومقارنة، وللوصول من ذلك إلى نظرية أو نظريات عامة في اللغة -

¹ - ينظر: نسيمه نابي، مناهج البحث اللغوي عند العرب، ص 45

تكشف عن حقيقتها نشأة وتطورا وتبرز القوانين أو الأصول العامة التي تشترك فيها لغات البشر وتعين على تحديد وتدقيق مناهج الدراسة اللغوية ووسائلها.

«وكانت تلك الجهود في الميدان اللغوي تستهدف وتساير النهضة العلمية والفكرية العامة التي شهدها الغرب في ذلك الزمان وقد نتج عن تلك الجهود المترادفة اللغوية - والتي لا تزال متتابعة قوية أن أصبحت دراسة اللغة علما من العلوم له ما لأي علم مستقل موضوع ومناهج ووسائل»¹. ولم يؤثر عن العرب أي نوع من الدراسات اللغوية قبل الإسلام، ولهذا فهم متأخرون زمنيا عن كثير من الأمم وجهودها، كما لم يكن البحث اللغوي عند العرب من الدراسات المبكرة خفوا لها سرعا لأنهم وجهوا اهتمامهم أولا إلى العلوم الشرعية والإسلامية، وحين فرغوا منها أو كادوا اتجهوا إلى العلوم الأخرى.

يقول السيوطي (ت 911هـ) في كتابه (تاريخ الخلفاء) معبرا عن الفكرة: «أنه منذ منتصف القرن الثاني الهجري بدأ علماء المسلمين يسجلون الحديث النبوي، ويؤلفون في الفقه الإسلامي والتفسير القرآني، وبعد أن تم تدوين هذه العلوم اتجه العلماء وجهة أخرى نحو تسجيل العلوم غير الشرعية ومن بينها اللغة والنحو»².

ويقول أحمد أمين: «أكثر اللغة كتبت في العصر العباسي الأول لا قبله»³.

وحتى ما وجد في القرن الأول من تأملات نحوية أو محاولات دراسة بعض المشاكل اللغوية كان الحافز إليه إسلاميا، ولم يقصد بذاته وإنما لاعتباره خادما للنص القرآني، ومن ذلك محاولة ابن عباس جمع الكلمات الغريبة في القرآن وشرحها في (غريب القرآن) وكذلك محاولة أبي الأسود الدؤلي (ت 69هـ) لضبط المصحف بالشكل حين استحضر كاتباً وأمره أن يتناول المصحف.

¹ - محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دار الفكر العربي، ط2، القاهرة، 1997م، ص 19.

² - جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تاريخ الخلفاء، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط2 قطر، دت، ص173.

³ - أحمد أمين، ضحى الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، مصر 1997م، ج1، ص298.

ولقد وقع اهتمام العرب بالجهود اللغوية ودراستها باهتمامهم بالنص القرآني حرصا منهم على تنقية لغتهم وفصاحتها. ولاسيما بعد دخول الأعاجم في الإسلام فاستهدف اللغويون والنحاة جمع لغتهم لحفظها من التشويه والتحريف، ولفهم النص القرآني، والوقوف على معانيه والإحاطة بدقائقه، واجتنابا التحريفات سواء في الأصوات والألفاظ أو في المعاني، وكذلك الأساليب والقواعد. وقد قال ابن خلدون في هذا الشأن: «إنه لما فسدت ملكة اللسان العربي في الحركات المسماة - عند أهل النحو- بالإعراب، واستنبطت القوانين لحفظها كما قلنا ثم استمر ذلك الفساد إلى موضوعات الألفاظ فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضعه عندهم ميولا مع هجنة المتعربين في اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية، فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين خشية الدروس، وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث فشعر كثير من أمة اللسان لذلك واصلوا فيه الدواوين»¹. نلاحظ أن العامل الديني يؤدي دورا كبيرا في الاهتمام بالدراسات اللغوية العربية وجهودهم فيها. وقد انتهج علماء العربية وضع القواعد التي تصف هذه اللغة وصفا محكما ودقيقا، والقيام بذلك منهاجا متميزا في البحث اللغوي معتمدين على ذوقهم وإعمال العقل ودقة الملاحظة، وكان في إطار الدراسة القرآنية، وقد كان لتلك الجهود اللغوية العربية فضل السبق في الوقوف على كثير من الظواهر الصوتية والنحوية، والدلالية وكذلك البلاغية والصرفية، التي أفادت المحدثين إفادة جمة ولاسيما الغرب، قال فيرث في هذا الشأن: «لقد نشأت الدراسات الصوتية ونمت في أحضان لغتين مقدستين العربية والسنسكريتية»². فقد بين هذا الأخير أن الفضل يعود للعرب والهنود في نشأة الدراسات الصوتية، وقد ركز المنهج العربي في ذلك على دراسة اللغة المشتركة، وهو المستوى الذي اتفق عليه بين المتحدثين بالفصحى.

¹ عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، تح: علي عبد الواحد وافي دار النهضة ط3، القاهرة، مصر، نت، ج3، ص2268.

² عبده الراجحي، فقه اللغة في الكتب العربية، دار المعرفة الجامعية، ط2، القاهرة، م 1995، ص ص 10-11.

وكان الدافع في ذلك نزول القرآن بتلك اللغة، لكن بالرغم من عظم ما قدمه العرب من جهود لغوية متخصصة، «إلا أن الكثير من الأوربيين تجاهلوا ذكر دور العرب وأثرهم عندما أرخوا للدرس اللغوي»¹. وذلك إما تعصبا منهم أو لكونهم أرخوا للدرس اللغوي في الغرب. غير أن بعض المنصفين الغربيين أشادوا بمنهج العرب في البحث اللغوي ومنهم المستشرق الألماني (شاده) الذي وضع فضل العرب في الدراسات اللغوية وجهودها ولاسيما الصوتية من خلال بحثه المعنون بـ (علم الأصوات عند سيبويه وعندنا) حيث: «أقر فيه بدقة منهج سيبويه في معالجة علم الأصوات حتى أنه لا يمكن أن يضاف إليه شيء ما عدا ما ذكر من الحنجرة، وأنها تعد جزء من الحلق»². فعلم اللغة الحديث بالنسبة إلى الفهم اللغوي القديم، كعلم الطبيعة والكيمياء والفلك والرياضيات بالقياس إلى نظائرها عند اليونان مثلا. ولكن العجيب في الأمر أننا في دراستنا وتدريسنا الطبيعة والكيمياء والفلك والرياضيات لا نجد فضاضة أو غرابة في أن ندرسها وندرسها كما هي عليه في أحدث صورها. أما ما كان عند القدماء من ذلك فنحن نعرض له في تواريخ تلك العلوم أو بغية الوصول إلى أفكار أو آراء أو فروض أو محاولات موحية خلاقية».

وهذا هو الشأن في علم اللغة الحديث، أنه وهو المنهج الجديد في فهم اللغة ودراستها يوصى بدراسة جهود الأقدمين والتنقيب فيها وتأريخها التأريخ الصحيح، ولاستحيائها واستهدائها³.

المطلب الأول: الجهود النحوية

لقد تمثلت الجهود النحوية واهتمت بدراسة عناصر الجملة وتراكيبها وخصائصها، وقد عرف القدماء النحو¹ «بأنه يهتم بأواخر الكلمات إعرابا وبناءا» ما يدل على أن الإعراب والبناء هما من أهم خصائص أواخر الكلمات داخل الجملة.

¹ - نسيمه نابي، مناهج البحث اللغوي عند العرب، ص ص 43.

² - عبد الصبور شاهين، في علم اللغة العام، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، ط2، مصر، 1985م، ص ص 20 .

³ - ينظر: المرجع نفسه.

1. تعريف النحو:

أ. لغة: هو الجهة والطريق أو الطريقة.

ب. اصطلاحاً: هو العلم الذي يتناول الكلمة في التراكيب أو إعراب الكلام العربي.

ج. نشأته: ترجع نشأة النحو إلى أبي الأسود الدؤلي (ت69هـ) الذي وضعه بأمر من أمير

المؤمنين علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - لما تأمل كلام العرب فوجده قد فسد

بمخالطة الأعاجم، فرمى برقعة كانت بيده إلى أبي الأسود الدؤلي، «وكان قد كتب فيها

الكلام كله اسم وفعل وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبأ به، والحرف ما أفاد

معنى". ثم قال: "انح هذا النحو، وأضف إليه ما وقع إليك"¹. وقد عرف ابن جني النحو

بقوله: "انتحاء سمت كلام العرب ليلتحق من ليس من أهل العربية بأهلها من الفصاحة"².

قال المبرد: «مر الشعبي بقوم من الموالي يتذكرون النحو فقال لئن أصلحتموه إنكم

أول من أفسده»³. فكان منهم علماء والمبرزون دراسة وتأليفاً حتى أشير إليه ردحا من الزمن

أنه علم الموالي.

فلأبي الأسود الدؤلي الفضل الوافر في بدء الفرس الذي نما وترعرع وازدهر في علم

النحو.

ولا يكاد الحديث عن النحو العربي وعن نشأته وتطوره يخلو من الحديث عن

المصادر التي اعتمد عليها، والتي أخذ منها أصوله ومصطلحاته، والبحث عن المصادر في

مسلك علمي قويم غير أنه في أغلب الأمم - كان يقود إلى معالجة قضية "الأصالة والتقليد

والمعالجة تبتغي وضع حدود فاصلة بين ما هو أصيل وما هو مأخوذ من أعمال الآخرين.

¹ - صالح بلعيد، النحو الوظيفي، ديوان المطبوعات الجامعية، دط، الجزائر، 1994م، ص 6

² - شريفي عز الدين، النحو والصرف، دار شريفي للطباعة والتوزيع، دط، 2005ع، ص 5.

³ - محمد الطنطاوي، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، دار المعارف، ط2، النيل، القاهرة، 1119م، مصر، ص 33.

من هنا كثر القول عن هذا النحو، فيراه بعضهم عربياً «قد نبت عند العرب كما تنبت الشجرة في أرضها» وأنه "أنقى العلوم العربية عروبة" ويراه الآخرون «ناقلاً عن الهنود أو اليونان أو السريان»¹.

ينسب النحو إلى أبي الأسود الدؤلي وضعه بمشورة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه - ولتوضيح ذلك نقدم نصاً من كتاب (نزهة الألباء في طبقة الأدباء) لأبي البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد الأنباري المتوفى سنة (577هـ) قال "سبب وضع علي رضي الله عنه - لهذا العلم ما روى أبو أسود الدؤلي، قال: «دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه - فوجدت في يده رقعة فقلت ما هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال: إني تأملت كلام الناس فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء (يعني الأعاجم) فأردت أن أضع لهم شيئاً يرجعون إليه، ويعتمدون عليه، ثم ألقى إليّ الرقعة، وفيها مكتوب الكلام كله اسم، فعل وحرف؛ فالاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبأ به، والحرف ما جاء لمعنى، وقال لي: أن هذا النحو، أضف إليه ما وقع إليك، واعلم يا أبا الأسود أن الأسماء ثلاثة: ظاهر، ومضمر، واسم لا ظاهر، ولا ضمير. وإنما يتفاضل الناس يا أبا الأسود فيما ليس بظاهر ولا مضمر، وأراد بذلك الاسم المبهم».

2. سبب وضع النحو:

يكاد القدماء يجمعون على أن السبب في وضع النحو وغيره من العلوم اللغوية هو شرب (اللحن) إلى الألسنة، خاصة حين (الإعراب) «ويعود السبب في ذلك إلى اختلاط العرب»².² بغيرهم من الشعوب والأجناس الأخرى، وقد عبر عن ذلك أحد اللغويين وهو أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي المتوفى سنة (379هـ) في كتابه (طبقات النحويين واللغويين) حيث قال: "لم تنزل العرب تنطق على سجيبتها في صدر إسلامها، وما في جاهليتها حتى أظهر الله الإسلام على سائر الأديان، فدخل الناس فيه أفواجا، وأقبلوا إليه

¹ - عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، دط، بيروت، مت، ص 9.

² - محمود سليمان ياقوت، النحو العربي، دار المعرفة الجامعية، دط، 1994م، ص 9

إرسالاً (أي طوائف)، واجتمعت فيه الألسنة المتفرقة، واللغات المختلفة، ففشا الفساد في اللغة والعربية^{*}. واستبان منه في الإعراب الذي هو حليها والموضح لمعانيها، فتقطن لذلك من نافر بطباعة سوء إفهام الناطقين من دخلاء الاسم بغير المتعارف من الكلام العرب، فعظم الإشفاق من فشو ذلك وغلبته، حتى دعاهم الحذر من ذهاب لغتهم وفساد كلامهم، إلى أن سببوا الأسباب في تقييدها لمن ضاعت عليه، وتثقيفها لمن زاغت عنه.¹

بعض من نحاة العرب والتعرف على جهودهم في نشأة النحو ونبدأ بالحديث عن:

أ. ابن أبي إسحاق: هو عبد الله بن أبي إسحاق مولى آل الحضرمي المتوفى سنة (ت 117 هـ) وهو أول من بعج^{*} النحو، ومد القياس وشرح العلل، وكان مائلاً إلى القياس في النحو والدليل على ذلك أن يونس بن حبيب سأله: هل يقول أحد (الصويق) قال: نعم عمرو ابن تميم يقولها وما تريد إلى هذا؟ عليك بباب من النحو يطرد وينقاس.

وكان ابن أبي إسحاق كثير التعرض للفرزدق (همام بن غالب) لورود بعض الشواذ النحوية في شعره، فقد سمعه ينشد قوله في مدح بعض بني مروان:

وعَضُّ زَمَانٍ يَا ابْنَ مَرْوَانَ لَمْ يَدَعْ... مِنَ الْمَالِ إِلَّا مُسْحَتًا أَوْ مُجْلَفًا^{**}

فرد عليه الرفع لكلمة (مجلف)؛ «لأن القياس النحوي يستوجب نصبها عطفاً على كلمة (مسحتا)، ولكن الفرزدق رفعها على الاستئناف حتى لا يصيب الإقواء القصيدة، أي اختلاف حركة الروي؛ فهي فائية مرفوعة»². وسمعه مرة يصف رحلته إلى الشام في قصيدته مدح فيها يزيد بن عبد الملك على هذا النمط:

* المقصود بمصطلح (العربية) علم النحو، لذلك نجد بعض العلماء حين يناقش قضية بداية التأليف في النحو يقول (أول من وضع العربية...)

¹ - أبو بكر الزبيدي "طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط2، ص11.

^{**} بعج، فتق

^{**} المسحت والمجلف، المستأصل

² - محمود سليمان ياقوت، النحو العربي، ص 13.

مستقبلين شَمَالَ الشَّامِ تَضْرِبُنَا...بِحَاصِبِ كَنْدِيفِ الْقُطْنِ مَنُورٍ*

على عَمَائِمِنَا تُلْقَى وَأَرْحُلُنَا...على زواحف تُرْجَى مُخْهًا رِيرٍ*

فقال له: أسأت إنما هو (مخها رير) مشيرا إلى قياس النحو في هذا التعبير، لأنه يتألف من مبتدأ وخبر، وما زال ينحى على الفرزدق باللائمة حتى جعل الشطر: "على زواحف تزجيتها محاسير".

وكانت مراجعته المستمرة له تغضبه، فهجاه بقصيدة، يقول في تضاعيفها هذا البيت.

ولو كان عبد الله مولى هجوته. ..ولكن عبد الله مولى مواليا

وما كاد يسمعه منه حتى قال له: «أخطأت أخطأت، إنها هو مولى موال»*. يريد أنه أخطأ في إجرائه كلمة مولى المضافة مجرى الممنوع من الصرف، إذ جرها بالفتحة «وكان ينبغي أن يصرفها قياسا على ما نطق به العرب مثل جوار وغواش إذ يحذفون الياء منونين الياء في الجر والرفع، وواضح من كل هذه المحاورات بينه وبين الفرزدق مدى احتكامه للقياس وما ينبغي للقاعدة من الاطراد، بحيث لا يجوز للشاعر مهما كان فصيحاً أن يخرج عليها»¹.

ب. أبو عمرو بن العلاء: وهو العالم المشهور في علم القراءة، واللغة المعرفية، وكان من الشأن بمكان، واسمه (زيان)، ويروي أن الفرزدق جاء معذرا إليه من أجل هجو اللغة عنه فقال له أبو عمرو:

هَجَوْتَ زَيَانَ ثُمَّ جِئْتَ مُعْتَذِرًا. .. مِنْ هَجْوِ زَيَانَ لَمْ تَهْجُوْ وَلَمْ تَدَّعِ

* الشمال، الريح الحصب، الريح التي تحمل الحصباء

* الزواحف، الإبل العجفاء التي أعيت فجرب خفافها تزجي، تساق، رير، ذائب.

* كان ابن أبي إسحاق مولى آل الحضرمي

¹ - شوقي ضيف، المدارس النحوية، دار المعارف ط7 كورنيش النيل القاهرة 1119 ج أ ع، ص 26.

فهذا يدل على أن اسمه زيان، واختلفوا في اسمه اختلافا كبيرا، حتى لقد أطلق عليه بعض المراجع واحدا وعشرين اسما، وجعل كنيته هي اسمه، وقد توفي أبو عمرو سنة (154هـ) في خلافة المنصور.

وأبو عمرو ثقة فيما يرويه؛ لأنه كان يتهم بالتدقيق للتوصل إلى الضبط الصحيح لبعض الكلمات، وقد روي عنه قوله: "كنت هاربا من الحجاج بن يوسف، فخرجت في الغلس أريد التنقل من الموضع الذي كنت فيه إلى غيره، فسمعت منشدا ينشد:

ربما تكره النفوس من الأمر... ر له فرجة كحل العقال.

وسمعت عجوزا تقول: مات الحجاج، فما أدري بأيهما كنت أسرّ

أيقول المنشد (فرجة) بفتح، أم بقول العجوز: مات الحجاج؟ ويعود السبب في ذلك إلى الاشتباه عليه: هل (فرجة) * بفتح الفاء أوضمها".¹ كما عني بلغات العرب وغيرها وأشعارها وأيامها ووقائعها وفي ذلك يقول الجاحظ عنه: «كان أعلم الناس بالغريب والعربية وبالقرآن والشعر وأيام العرب وأيام الناس». فهو إلى أن يكون من اللغويين والقراء أقرب منه أن يكون من النحاة، غير أنه نقلت عنه بعض أثار نحوية جعلت المصنفين يسلكونه بين أوائل النحاة، وخاصة أن ابن جني يقول: «كان من نظروا في النحو والتصريف وتدرّبوا وقاسوا ولكن لم يكن هذا الجانب الذي شغله، ولعل ذلك هو السبب في أن سيبويه لم يرو عنه ولا عن تلاميذه شيئا مهما له في النحو ومسائله».²

ج. عيسى بن عمر الثقفي (ت149هـ): بصري من موالي آل خالد بن الوليد

نزل في ثقيف فنسب إليها، وهو أهم تلاميذ بن أبي إسحاق، وقد مضى على هديه يطرد

*الفرجة في الأمر، والفرجة في الحائط وغيره.

¹محمود سليمان ياقوت، النحو العربي، ص16.

²شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص24.

القياس ويعممه ومن أقيسته ما حكاه سيبويه عنه من أنه كان يقيس النصب في كلمة (يا مطرا) في قول الأحوص (ت 105هـ):

سلام الله يا مطرا عليها. .. وليس عليك يا مطر السلام

على النصب في كلمة (يا رجلا) وكأنه يجعل مطرا في تنوينها ونصبها كالنكرة غير المقصودة، وكان مثل ابن أبي إسحاق يطعن على العرب الفصحاء إذا خالفوا القياس، وكان يصعد في هذا الطعن حتى العصر الجاهلي، من ذلك تخطئته النابغة في قوله:

فبت كأني ساورتني ضئيلة. .. من الرقش في أنيابها السم نافع*

إذ جعل القافية مرفوعة، وحققا أن تكون تنصب على الحال لأن المبتدأ قبلها تقدمه الخبر وهو الجار والمجرور، وكان النابغة (ت 604 م) ألقاهما لتقدمهما وجعل ناقعا الخبر ومن أقيسته في القراءات أنه كان يقرأ الآية الكريمة ﴿يَا جِبَالُ أَوَّي مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾¹ بنصب كلمة الطير، وكان يقول هو على النداء كما يقول (يا زيد ويا الحارث) لما لم يمكن القائل: (ويا الحارث)، نصب الكلمة لأن يا لا تدخل في النداء على المعرف بالألف واللام.

ويروى أنه كان يخالف جمهور القراء في قراءة الآية الكريمة ﴿هُؤَلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾² إذ كان يقرؤها بنصب اطهر على الحال، وجعل هن ضمير فصل. ويبدو أنه كان يتوسع في تقدير العوامل المحذوفة، من ذلك ما رواه سيبويه عنه من أنه «كان يلفظ قولهم (ادخلوا الأول فالأول) برفع الكلمتين الأخيرتين على تقدير أنهما مرفوعتان بفعل مضارع محذوف تقديره (ليدخل) وكأنه لئن تلميذه الخليل والنحاة من بعده فكرة تقدير العوامل المحذوفة التي عمموها في كثير من العبارات. ووضع أصلا لهما يدل على حسه اللغوي هو اختيار النصب في الألفاظ التي جاءت عن العرب في بعض العبارات مرفوعة ومنصوبة»³.

* ساورتني، واثنيتي، ضئيلة، دقيقة، الرقش، الأفاعي التي لا تختلط في خلدها نقط سوداء وبيضاء، نافع، قال

¹ - سورة سبأ، الآية 10

² - سورة هود، الآية 78

³ - شوقي ضيف، المدارس النحوية ص 26.

وكأنه أحس في وضوح أن العرب تنزع إلى النصب أكثر مما تنزع إلى الرفع لخفته، فجعل النصب فوق الرفع وعده الأساس، وليس ذلك كل ما تحقق للنحو عنده من رقي فقد خطا به خطوة كبيرة، إذ ألف فيه رسائل ومصنفات مختلفة اشتهر منها لعصره مصنفان مهمان هما (الجامع) و(الإكمال) وكأنه جمع مسائل النحو وقواعده في أولهما ثم رأى إكمال تلك القواعد والمسائل في الكتاب الثاني، وقد أقام قواعده في الجامع على الأكثر في كلام العرب وسمى ما شذ عن ذلك لغات. ويقال أن سيويبه لما أحضره ليقرأه على الخليل أنشد تنويها به وبالإكمال:

بَطْلُ النَّحْوِ جَمِيعًا كُلُّهُ. .. غَيْرَ مَا أُحْدِثَ عِيسَى بْنُ عَمْرِ

ذَاكَ "إِكْمَالًا" وَهَذَا "جَامِعٌ" ... فَهُمَا لِلنَّاسِ شَمْسٌ وَقَمَرٌ¹

وواضح مما قدمنا أن عيسى بن عمر هو الذي مكن للنحو وقواعده التي اعتمدها تلميذه الخليل، ومن تلاه من البصريين سواء في محاضراته وإملاءاته أوفي مصنفاته، «وقد توفي عيسى بن عمر سنة (149هـ) تاركا للخليل جهوده النحوية كي يتم صرح النحو ويكمل تشييده»².

د. الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175هـ): هناك عدة دراسات وضعها المحدثون حول الخليل وحياته، وفكره اللغوي، ونقدم تعريفا به على نحو ما ورد في كتب الطبقات والتراجم هو أبو عبد الرحمان بن أحمد الفراهيدي البصري وكان يونس بن حبيب يقول: الفرهودي مثل: فردوس وهو حي من الأزل، ولم يسم أحد بأحمد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل والد الخليل وكان الخليل ذكيا فطنا شاعرا سيد أهل الأدب قاطبة، في علمه وزهده واستنبط من العروض، ومن علم النحو ما لم يستنبط أحد وما لم يسبقه إلى مثله سابق وهو القائل:

¹ - شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص27

² - المرجع نفسه، ص27.

اعمل بعلمي وإن قصرت في عملي... ينفَعك علمي ولا يضرُّكَ تقصيري¹

وكان الخليل رحمه الله من الزهاد في الدنيا المعرضين عنها، ويروي أنه وجه إليه سليمان بن علي من الأهواز لتأديب ولده، فأخرج الخليل إلى رسول سليمان خبزاً يابساً، وقال: كل فما عندي غيره، وما دمت أجدّه فلا حاجة لي إلى سليمان، فقال له الرسول: فما ابْلغُه عنك؟ فأنشأ يقول:

أبلغ سليمان أنني عنه في سعة ٠٠٠ وفي غنى وغير أنني لست ذا مال

صخر بنفس أنني لا أرى أحداً ٠٠٠ يموت هزلاً ولا يبقى على حال

والفقر في النفس لا في المال تعرفه.. ومثل ذلك الغني في النفس لا المال

فالرزق عن قدر لا العجز ينقصه ٠٠٠ ولا يزيـدك فيه حول محتال²

والخليل بن أحمد هو أول من استعرض علم العروض، وضبط اللغة العربية وأملى (كتاب العين) على الليث بن المظفر، وكان أول من حصر أشعار العرب، وكان يقول البيتين والثلاثة ونحوها في الآداب، مثل صاروا عنه أنه كان يقطع العروض، ودخل عليه ولده في تلك الحالة، فخرج إلى الناس وقال: إن أبي قد جن، فدخل الناس عليه فرأوه يقطع العروض وأخبروه بما قال ابنه فقال له:

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني... أو كنت تعلم ما تقول عذلتك

لكن جهلت مقالتي فعذلتني ٠٠٠ وعلمت أنك جاهل فعذرتك³

وقد توفي الخليل (ت 175 هـ)⁴ ولقد كان عقل الخليل من العقول الخصبة النادرة، فهو لا يلم بعلم حتى يلتهمه التهاماً، بل حتى يستوعبه ويتمثله وينفذ منه إلى ما يفتح به

¹ - الخليل ابن أحمد الفراهيدي، صنعة حاتم الضامن (شعراء مقلون) عالم الكتب، الطبعة الأولى، 1407 هـ 1987 م.

² - محمود سليمان ياقوت، النحو العربي، ص 15.

³ - الخليل ابن أحمد الفراهيدي، صنعة حاتم الضامن (شعراء مقلون) نفس المرجع.

⁴ - المرجع نفسه، ص 17.

أبوابه الموصدة وحقا ما قاله بن المقفع (ت142هـ) فيه من أن عقله كان أكثر من علمه، وهو عقل جعله يتصل بكل علم ويحوز لنفسه منه كل ما يبتغي من ثراء في التفكير ودقة في الاستنباط دقة تذهل كل من يقف على وضعه لعروض الشعر ورفع له لصرح النحو ورسمه المنهج الذي ألف عليه معجم العين أول معجم في العربية، ولما أدركته الشهرة لم يستغلها لنفسه وتحقيق ما حققه بعض معاصريه من الثراء العريض، بل مضي مزدريا للشهرة وما قد يطوي فيها من مجد مادي، مكتفيا بكفاف العيش وفي ذلك يقول النظر بن شميل أحد تلاميذه: «أقام الخليل في خص من اختصاص البصرة لا يقدر على فلس وأصحابه يكسبون بعمله الأموال»¹.

وكذلك كان عقل الخليل عقلا فذا فكلما مس شيئا نظمه واستنبط قوانينه ودقائقه، وقد سلط هذا العقل على القوانين العربية في النحو والتصريف فإذا هو يكشفها اكتشافا دقيقا وحقا لم يترك فيها كتابا جامعاً.

وإنما ترك، إن صح ما ذكره المترجمون له كتابات فرعية كرسالة له في معنى الحروف وثانية في جملة آلات الإعراب، وثالثة في العوامل ويظن القفطي أنها منتحلة عليه ورابعة لعلها من عمل غيره إذ تسمى "شرح صرف الخليل"، ولكنه إذا كان لم يترك في النحو والتصريف كتابا كبيرا ماثورا يضم فروعها وشعبها الكثيرة، فإن تلميذه سيبويه سجل في كتابه كثيرا من بحوثه النحوية والصرفية، حتى كأنه كان موكلا بأن لا يترك له رأيا مهما يصل بقواعد العلمين ومسائلهما إلا دونه حتى قال القدماء إن كتابه من تصنيفه وتصنيف أستاذه الخليل، وعبروا عن ذلك عبارات مختلفة من مثل قول ثعلب (ت 291هـ) "الأصول والمسائل في الكتاب للخليل" ويقول أبو الطيب اللغوي (ت 351هـ): «عقد سيبويه كتابه بلفظه ولفظ الخليل» ويقول السيرافي (ت 368هـ): «عامه الحكاية في كتاب سيبويه عن الخليل أستاذه». وكل ما قاله سيبويه (ت180هـ): «سألته أو قال من غير أن يذكر قائله فهم الخليل»، وكل من يقرأ الكتاب يرى بوضوح ويحس بما قاله ثعلب من أن الأصول

¹ - شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص31.

وأَمَّات المسائل النحوية والصرفية من عمل الخليل، وكأنه بالقياس إلى سيبويه كان الكنز الذي لا ينفذ.¹ وهو الذي -الخليل- سُمى علامات الإعراب في الأسماء باسم الرفع والنصب والخفض وسمى حركات المبنيات باسم الضم والفتح والكسر، أما سكونها فسمّاها الوقف وسمى الكسرة غير المنونة في مثل: «مررت بعبد الله باسم الجر، كما سُمى السكون الذي يقع في أواخر الأفعال المضارعة والمجزومة باسم الجزم، وكان يرى أن الألف والياء والواو في التنثية وجمع المذكر السالم هي نفس حروف الإعراب».² ولقد أدته بحوثه الواسعة في بنية الكلمة وما لحروفها من أصالة وزيادة إلى أن يقسم الكلمات إلى مجردة و مزيدة، ملاحظاً أن المجردة لا تزيد على خمس ولا تقل عن ثلاثة.

3. جهود مدرستي البصرة والكوفة النحوية:

نشأ النحو بصريا، فكانت البصرة سبّاقة في النظر في قواعد اللغة العربية، فالنحو البصري أسبق من النحو الأجنبي بدليل أننا نجد لدى العرب نظرية العامل ولا نجدّها عند الأُجانب، وقد وضع النحو البصري منذ القرن الأول الهجري واستمرت الجهود المتواصلة إلى غاية وصول الخليل بن أحمد الفراهيدي وتلميذه سيبويه اللذين وضعّا النحو العربي البصري بصورته المعروفة.

أ. مدرسة البصرة: كانت البصرة أسبق إلى بناء صرح النحو العربي، أي وضع قواعد عربية فقد وضع النحو البصري منذ القرن الأول الهجري، واستمرت الجهود إلى غاية وصول الخليل بن أحمد الفراهيدي وتلميذه سيبويه، «وقد كان لهذه المدرسة منهج خاص بها نوضحه كالآتي:

¹ - شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص 34

² - أبو القاسم الزجاجي، الإيضاح في ظل النحو، تح: مازن المبارك، دار النفائس، طه، بيروت (1402 هـ - 1982م) ص 130.

• الاعتماد على القياس في استنباط الأحكام النحوية، وهذا معناه أنهم يجعلون لكل شيء قاعدة مطردة بناء على الأغلب الشائع من كلام العرب منه، فهو شاذ أو ضرورة، ونشأ عن هذا المبدأ أمور منها:

– أخذوا يخطون بعض النصوص العربية فإذا رأوا نصا يخالف القواعد خطئوه، ونتج عن ذلك أيضا الاضطرار إلى التأويل والتقدير عندما يخالف النص القاعدة التي وضعوها أو بنوها.

– التأثر بالعقل والمنطق فصاروا ينظرون في النصوص، ويعملون فيها العقل بحيث يحاولون تفسير الظواهر النحوية، بمقتضى العقل، ومثال ذلك الأحكام التي أصدروها عن العامل النحوي وأحكامه وعللوا الأحكام النحوية مثل: النصب والجر والدفع وغيره.

– كانوا لا يأخذون من أهل الحضر وإنما من أهل البادية، لأنهم كانوا على فصاحتهم ولم يختلطوا بالأعاجم مثل: الحضر»¹.

ب. مدرسة الكوفة:

• قد ركزوا على التوسع في السماع، بمعنى أنهم إذا سمعوا شيئاً قبلوه سواء خارج القاعدة أو في مواقف لها يستشهدون بجميع لغات العرب سواء الحضر أم البادية ويقتبسون على كل ممن يسمعون، ويجعلونه أصلاً يبنون عليه.

• التوسع في المقيس عليه، بمعنى أنهم يقيسون على القليل والكثير والنادر والشائع والشاذ بينما البصريون لا يقيسون إلا على الكثير.

• البعد على التأويل والتقدير والعقليات، وهذه ميزة جيدة بينما المصريون اضطروا إلى التأويل والعقل والمنطق التعليل الأحكام النحوية، أما الكوفيون

¹ - نسيمه نابي، مناهج البحث اللغوي عند العرب، ص 27.

فأجروا النصوص على ظاهرها دون تأويل وهذه القاعدة جيدة.¹

المطلب الثاني: الجهود الدلالية

لقد ثبت أن الحديث على المستوى الدلالي يعني الاتجاه من اللغة نحو ما هو غير لغوي، «فعندما نتحدث عن مدلول لفظة ما نتجاوز جرسها الصوتي، ونسيجها الفونيمي ورسمها الخطي، إلى ما تحيل إليه في العالم الخارجي أوفي العالم الذهني، والكلمة إشارة صوتية والمعنى هو المشار إليه، أو هو المرجع الذي تحيلنا له. وقد صعب على اللغويين القدماء منهم والمحدثين تعريف المعنى».² والمستوى الدلالي هو ذلك المستوى الذي يدرس الشروط الواجب توافرها في الرمز حتى يكون قادرا على حمل المعنى.³ وبالتالي فإن علم الدلالة منتشر في جميع مستويات اللغة من الجانب الصوتي والصرفي والتركيبي وحتى التداولي، لأن جميع هذه المستويات مرتبطة بالمعنى.

أولا: الحقل الدلالي

يعرفه اللغوي جون لاينز (loys) بقوله: «هو قطاع متكامل من المادة اللغوية تعبر عن مجال معين من الخبرة»، أي أنه مجموعة مجتزأة من ألفاظ اللغة تسودها علاقة معنوية واحدة متجانسة أو متقاربة على الأقل.

ويمكن استخدام أكثرها في موضوع معين أما جورج موانان فيعرفه بقوله: «مجموعة كبيرة أو غير كبيرة من الألفاظ التي تشتمل على مفاهيم صغرى تتدرج تحت مفهوم واحد عام يحدد هذا الحقل، أي أنه كلمات مترابطة فيما بينها برابط دلالي».⁴

ثانيا: تعريف الدلالة

1. لغة:

¹ - المرجع نفسه، ص28.

² - إبراهيم خليل، مدخل إلى علم اللغة، ص217.

³ - المرجع نفسه، ص200.

⁴ - أحمد مختار عمر، علم الدلالة عالم الكتاب، ط1، مصر القاهرة، 1995، ص11.

الدلالة بفتح الدال وكسرها مصدر من الفعل دل أي أُرشد، والجمع دلائل ودلالات وقال ابن دريد: «الدلالة بالفتح حرفة الدلال»^{*} ودليل بين الدلالة بالكسر لا غير.

جاء في لسان العرب لابن منظور: «دل على شيء يدلّه دلا ودلالة، فاندل: سدده إليه والدليل ما يستدل به، والدليل دال وقد دله على الطريق يدلّه دلالة، ودلالة ودلولة، والفتح أعلى، والدليل والدليلي: الذي بذلك، والجمع أدلة، وإدلاء والاسم الدلالة بالكسر والفتح والدلولة والدليلي. قال سيبويه: الدليلي علمه بالدلالة ورسوخه فيها.

ودلت بهذا الطريق عرفته، ودلت به أدل دلالة وأدلت بالطريق ادلالا، والد الذي يجمع البيعين والاسم الدلالة والدلالة ما جعلته للدليل أو الدلال»¹.

2. اصطلاحا:

يعرفه بعضهم بأنه: «دراسة المعنى أو العلم الذي يدرس المعنى وهو الفرع من المعنى الذي يتناول نظرية المعنى»².

والدلالة هي كون اللفظ متى أطلق أو أحس فهم منه معناه للعلم بوضعه. وهي منقسمة إلى المطابقة والتضامن والالتزام، لأن اللفظ الدال بالوضع تدل على تمام ما وضع له بالمطابقة وعلى جزئه بالتضمن إن كان له جزء وعلى ما يلازمه في الذهن بالالتزام كالإنسان فإنه يدل على تمام الحيوان الناطق بالمطابقة وعلى أحدهما بالتضمن وعلى قابل العلم بالالتزام³، وقيل دلالة اللفظ ما تقتضيه إطلاقه.

ثالثا: مصطلح الدلالة وأبعاده

لقد تبلور مصطلح علم الدلالة في صورته الفرنسية (sémantique) لدى اللغوي الفرنسي بريال (bréal) في أواخر القرن التاسع عشر 1883م ليغير عن فرع من علم اللغة

* الدلال، الذي يجمع بين البيعين أو هو لذي ينادي على السلعة.

¹ - أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص11.

² - مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، طبعة دار الهداية، مادة دل، مادة (د-ل-ل)

³ - فايز الداية، علم الدلالة العربي، دار الفكر العربي، ط2، بيروت، لبنان، 1996، ص6.

العام هو علم الدلالات ليقابل علم الصوتيات الذي يعنى بدراسة الأصوات اللغوية اشتقت هذه الكلمة الاصطلاحية من أصل يوناني مؤنث (sémantik) مذكروه (sémantikos) أي يعني يدل ومصدره كلمة (séma) أي إشارة ؛ وقد نقلت كتب اللغة هذا الاصطلاح إلى الإنجليزية وحضي بإجماع جعله متداولاً بغير لبس (semantikies)¹. يقول السيد شريف الجرجاني (ت816هـ): «الدلالة هي كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر والشيء الأول هو الدال، والثاني هو المدلول» وكيفية دلالة اللفظ على المعنى اصطلاح علماء الأصول محصورة في عبارة النص وإشارة النص، واقتضاء النص.²

رابعاً: لفظ (دل) في معاجم اللغة

إن الصورة المعجمية لأي لفظ في اللغة العربية تمثل المرجعية الأولى لهذا اللفظ في القاموس الخطابي، باعتبار دلالاته الأولى فالحالة المعجمية للألفاظ تمثل الصورة الأساسية لمحيطها الدلالي.³ والقرآن الكريم يمثل ذروة ما وصل إليه الخطاب اللغوي القديم من فصاحة اللغة وجودة التعبير والدلالة، فلو تتبعنا لفظ (دل) وما صيغ منه في معاجم اللغة المعروفة لألفينا دلالاته لا تتعد عن ذلك المجال الذي رسمه القرآن الكريم. فيورد ابن منظور قول حول معاني لفظ (دل): "الدليل، ما يستدل به، والدليل الدال، وقد دله على الطريق يدلّه دلالة (بفتح الدال أو كسرهما أو ضمها) والفتح أعلى، ويسوق بن منظور قول سيبويه: "والدليلي علمه بالدلالة ورسوخه فيها" وفي حديث علي رضي الله عنه صفة الصحابة: "ويخرجون من عنده أدلة"⁴ وهو جمع دليل أي بما قد علموا فيدلون عليه الناس معنى يخرجون من عنده فقهاء، فجعلهم أنفسهم أدلة مبالغة.

¹ - منقور عبد الجليل، علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، د ط، دمشق، 2001، ص21.

² - فايز الداية، علم الدلالة العربي، ص41.

³ - ابن منظور، لسان العرب، مادة (د-ل-ل).

⁴ - ابن منظور، لسان العرب ، مادة (د-ل-ل)..

إن ابن منظور بما جمع من أمثلة يرسم الإطار المعجمي للفظ (دل) محددًا المعنى الحقيقي الذي ينحصر في دلالة الإرشاد أو العلم بالطريق الذي يدل الناس ويهديهم، وهذا التطور الدلالي لا يختلف عن التطور الحديث مما يعني أن المصطلح العلمي (الدلالة) يستوحي معناه من تلك الصورة المعجمية التي نجدها في أساليب الخطاب اللغوي القديم.¹

وإلى المعنى ذاته يشير الفيروز أبادي (ت817هـ) محددًا الوضع اللغوي للفظ دل فيقول: «فإن دل سده إليه وقد دلت تدل، والدال كالهدي..² وبهذا الشرح يؤكد الفيروز أبادي ما نص عليه ابن منظور من أن الأصل اللغوي للفظ (دل) يعني هدى وسدد وارشده.

خامسا: لفظ "الدلالة" في القرآن الكريم

لقد أورد القرآن الكريم صيغة (دل) بمختلف مشتقاتها في مواضع سبعة تشترك في إبراز الإطار اللغوي المفهومي لهذه الصيغة، وهي تعني الإشارة إلى الشيء أو الذات سواء أكان ذلك تجريدا أم حسا ويترتب على ذلك وجود طرفين: طرف دال وطرف مدلول، يقول الله تعالى في سورة الأعراف حكاية عن غواية الشيطان لآدم وزوجه ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾.³ أي أرشدهما إلى الأكل من تلك الشجرة التي نهاهما الله عنها إشارة الشيطان دال والمفهوم الذي استقر في ذهن آدم وزوجه وسلكا وفقه هو المدلول أو محتوى الإشارة.

فبالرمز ومدلوله تمت العملية الإبلاغية بين الشيطان من جهة وآدم وزوجه من جهة ثانية والمعنى ذاته يشير قوله تعالى حكاية عن قصة موسى عليه السلام: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾⁴ كما ورد قوله تعالى في سورة (طه) حكاية عن إبليس ﴿قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ

¹ - فايز الداية، علم الدلالة العربي، ص.42

² - مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، القاموس المحيط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3، مصر، 1301 ج3، ص377

³ - سورة الأعراف، الآية 22 تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن، ج13، ص 37.

⁴ - سورة القصص، الآية 12، تفسير الكشاف، الإمام الزمخشري، ج4، ص217

وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى¹ فهاتان الآيتان تشيران بشكل بارز إلى الفعل الدلالي المرتكز على وجود باث يحمل رسالة ذات دلالة، ومتقبل يتلقى الرسالة ويستوعبها.² وهذا هو جوهر العملية الإبلاغية التي تنشرها اللسانيات الحديثة، فإذا تم الاتصال الإبلاغي فواضح أن القناة التواصلية سليمة بين الباث والمستقبل.

سادسا: نشأة الدلالة وتطورها

لقد استقطبت اللغة اهتمام المفكرين منذ أمد بعيد لأن عليها مدار حياة مجتمعاتهم الفكرية والاجتماعية، وبها يتم فهم كتبهم المقدسة، وكان من جملة الآراء التي أوردها العلماء حول نشأة اللغة «قولهم بوجود علاقة ضرورية بين اللفظ والمعنى، شبيهة بالعلاقة اللزومية بين النار والدخان».³ فكان هذا مع علماء اللغة الهنود، حيث كان كتابهم الديني (الفيدا) منبع الدراسات اللغوية، كما كان لليونان أثرهم البين في بلورة مفاهيم لها صلة وثيقة بعلم الدلالة فقد حاور أفلاطون أستاذه سقراط حول موضوع العلاقة بين اللفظ ومعناه. وكان أفلاطون يميل إلى القول بأن العلاقة طبيعية بين الدال والمدلول، وأما أرسطو فكان يقول باصطلاحية العلاقة، وذهب إلى تقسيم الكلام إلى كلام خارجي وكلام داخلي في النفس معتبرا المعنى متطابقا مع التطور الذي يحمله العقل عنه.

1. علم الدلالة عند اليونان:

من الطبيعي أن تكون الدلالة من الموضوعات التي يهتم بها الفكر الإنساني منذ القدم وكان ذلك عند فلاسفة اليونان، فقد رأى أرسطو أن المعنى يتطابق مع التصور الموجود في العقل، وميز بين الأشياء في العالم الخارجي (التصورات أو المعاني الأصوات أو الرموز الكلمات). وفتح ذلك الباب لكثير من الأفكار والمناقشات حول الدلالة والمعنى في العصور الوسطى، «كما تعرض أفلاطون إلى قضية العلاقة بين اللفظ والمعنى واتجه إلى

¹ - سورة طه، الآية 120، تفسير بن كثير، ج4، ص 542.

² - منقور عبد الجليل، علم الدلالة، ص 27.

³ - أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص 19

أن العلاقة بينهما طبيعية ذاتية، بينما اتجه أرسطو إلى أن هذه العلاقة اصطلاحية عرفية، أي متواضعة عليها وقام بشرح هذه العلاقة العرفية وبيانها»¹. فقد أولى الفلاسفة اليونانيون اهتماما كبيرا بقضية الدلالة في أبحاثهم، ومن أهم القضايا الدلالية التي تناولها اليونان بالدراسة قضية العلاقة بين اللفظ ومعناه والتي تعارضت فيها نظريتان:

ترى الأولى أن العلاقة بين اللفظ والمعنى طبيعية، ويرى الثاني أن العلاقة ناجمة عن عرف واصطلاح، ونجد أفلاطون هو أشهر من يمثل الاتجاه الأول في حوارهِ كراتيل من "إن للألفاظ معنى لازما متصلا بطبيعتها، أي أنها تعكس أما بلفظها المعبر وما بينية اشتقاقها. الواقع الذي تعبر عنه". أما الاتجاه الثاني فيمثله أرسطو إذ يعد الناطق بهذه النظرية القائلة بأن: للألفاظ معنى اصطلاحى ناجم من اتفاق وعن تراضي بين البشر" وقد تبلورت هذه المباحث اللغوية عند اليونان حتى غدا لكل رأي أنصاره من المفكرين، فتأسست بناء على ذلك مدارس أرست قواعد هامة في مجال دراسة اللغة كمدرسة الرواقيين^{*}.

ومدرسة الإسكندرية ثم كان العلماء الرومان جهدا معتبرا في الدراسات اللغوية خاصة ما تعلق منها بالنحو، وإليهم يرجع الفضل في وضع الكتب المدرسية التي بقيت صالحة إلى حدود القرن السابع بما حوته من النحو اللاتيني.

2. علم الدلالة عند الهنود:

اهتم الهنود بالتأمل في لغتهم وقاموا بدراستها بدافع ديني للحفاظ على كتابهم المقدس (الفيدا). وهذا ما يشبه أمر العرب عندما درسوا لغتهم. «وكان (بانيني) الذي عاش في القرن الخامس والرابع قبل الميلاد وضع كتابا في السنسكريتية سماه (المثمن) قيل أنه أشبه بكتاب سيبويه»²، وقد كان من أهم الموضوعات التي ناقشها الهنود نشأة اللغة

¹ - أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص 17.

^{*} الرواقيون (stoiciens) ينسبون إلى ريتون القيسوني (ت 244 ق م) بالفلسفة.

² - أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص 17.

واكتساب بعض الأصوات لمعانيها وقد كانوا فريقين، أحدهما يرى أن اللغة نشأت بالإلهام والثاني من اختراع البشر.

كما ناقشوا قضية اللفظ والمعنى، فمنهم من رأى أن اللفظ والمعنى لا ينفصلان عن بعضهما، ومنهم من رأى أن اللفظ والمعنى علاقة فطرية وطبيعية، ومنهم من رأى أن العلاقة بين اللفظ والمعنى علاقة ضرورية لزومية، وتوصلوا إلى أن هناك أربعة أقسام الدلالات الكلمات بناء على حسب عدد الأصناف الموجودة في الكون وهي:

- أ. قسم يدل على مدلول عام وشامل (مثل: لفظ / رجل)
- ب. قسم يدل على كيفية (مثل: كلمة / طويل)
- ج. قسم يدل على حدث (مثل: الفعل / جاء)
- د. قسم يدل على ذات (مثل: الاسم / عمر)¹.

إن دراسة المعنى في اللغة بدأ منذ أن حصل للإنسان وعي لغوي، فقد كان هذا مع علماء اللغة الهنود، كما كان لليونان أثرهم البين في بلورة مفاهيم لها صلة وثيقة بعلم الدلالة. وبقي الاهتمام بالمباحث الدلالية يزداد عبر مراحل التاريخ، ولم يدخر المفكرون أي جهد من أجل تقديم التفسيرات الكافية لمجمل القضايا اللغوية التي فرضت نفسها على ساحة الفكر، ففي عصر النهضة أين سادت الكلاسيكية بأنماطها في التفكير والتأليف امتازت الدراسات اللغوية في هذه المرحلة بالمنحى المنطقي العقلي، وأحسن من يمثل هذه الفترة رواد مدرسة (بور رويال) الذين رفعوا مقولة: إن اللغة ما هي إلا صورة للعقل وإن النظام الذي يسود لغات البشر جميعاً قوامها العقل والمنطق.² إن الأبحاث الدلالية في الفكر العربي التراثي، لا يمكن حصرها في حقل معين من الإنتاج الفكري بل هي تتوزع لتشمل مساحة شاسعة من العلوم لأنها مدينة للتجاور بين المنطق وعلوم المناظرة وأصول الفقه والتفسير والنقد الأدبي والبيان.

¹ - احمد مختار عمر، علم الدلالة، ص 19.

² - منقور عبد الجليل، علم الدلالة، ص 19.

إن هذه الجهود اللغوية في التراث العربي لأسلافنا الباحثين، وتلك الأبحاث التي اضطلع بها اللغويون القدامى من الهنود واليونان واللاتين وعلماء العصر الوسيط، وعصر النهضة الأوروبية، فتحت كلها منافذ كبيرة للدرس اللغوي الحديث وأرست قواعدها في البحث الألسني والدلالي، استفاد منها علماء اللغة المحدثون بحيث سعوا إلى تشكيل هذا التراكم اللغوي المعرفي في نمط علمي يستند إلى مناهج وأصول ومعايير، وهو ما تجسم في تقدم العالم الفرنسي ميشال بريال (m- bréal) في الربع الأخير من القرن التاسع عشر إلى وضع مصطلح يشرف من خلاله على البحث في الدلالة¹. إن العالم اللغوي بريال انطلق دون ريب في تحديد موضوع علم الدلالة ومصطلحه من جهود من سبقة من علماء اللغة الذين وفروا مفاهيم مختلفة تخص المنظومة اللغوية من جميع جوانبها. يقول كمال بشر: «إن دراسة المعنى بوصفه فرعاً مستقلاً عن علم اللغة»، وقد ظهرت أول ما ظهرت سنة 1839م لكن هذه الدراسة لم تعرف بهذا الاسم (السيمانتيك) إلا بعد فترة طويلة أي سنة 1883م عندما ابتكر العالم الفرنسي (م. بريال) المصطلح الحديث، إلا أن المؤرخين اللغويين يجمعون على أن فضل بريال يمكن تخصيصه كتاباً استقل بدراسته المعنى هو كتاب (محاولة في علم المعاني) بسط فيه القول عن ماهية علم الدلالة وأبدع منهجاً جديداً في دراسة المعنى وهو المنهج الذي ينطلق من الكلمات نفسها لمعاينة الدلالات دون ربط ذلك بالظواهر اللغوية الأخرى، ويمكن أن نرسم معالم هذا المنهج اللغوي الجديد انطلاقاً من النص الذي أورده (بريال) في سياق تعريفه بعلم الدلالة.

- إذا كانت اللسانيات تهتم بشكل الكلمات، فإن علم الدلالة (السيمانتيك) يهتم بجوهر هذه الكلمات وتضاميتها.
- الهدف الذي ينشده علم الدلالة هو الوقوف على القوانين التي تنظم تغير علم المعاني وتطورها وتجدها، والقواعد التي تسيّر وفقها اللغة.² وذلك بالاطلاع

¹ - منقول عبد الجليل، علم الدلالة، ص 20.

² - ينظر: المرجع نفسه، ص 21.

على النصوص اللغوية بقصد ضبط المعاني المختلفة بأدوات محددة وفي هذا سعي حثيث إلى التنوع في التراكيب اللغوية الأداء وظائف دلالية معينة، وهذا التنوع الذي يثري اللغة إثراء يحفظ أصول هذه اللغة، ولا يكون حاجزا أمام تطورها وتجدها ويمكن في خضم البحث عن هذه النواميس خلق نواميس لغوية جديدة لكي تشرف على النظام الكلامي بين أهل اللغة «لأن عالم اللسان يكون همه الوعي باللغة عبر إدراك نواميس السلوك الكلامي».¹

- إتباع المنهج التطوري الذي يقف على ميلاد الكلمات ويتتبعها في مسارها التاريخي، وقد يردّها إلى أصولها الأولى لأن اللغة مؤسسة اجتماعية تحكمها نواميس مفروضة على الأفراد تتناقلها الأجيال بضرب من الحتمية التاريخية،² إذ كل ما في اللغة -راهنًا- إنما هو منقول من أشكال سابقة هي الأخرى منحدرّة من أنماط أكثر بدائية وهكذا إلى الأصل الواحد أو الأصول الأولية المقدرة.

سابعاً: منهج الدلالة وأقسامها

إن الحديث عن مناهج العرب القدامى في البحث اللغوي قد سبق الغربيين إلى ما يعرف بتضييق الألفاظ في حقول دلالية متعددة الأغراض، وإن لم يستعملوا هذا المصطلح في وصف ما دونوه، فمما لا ريب فيه، ولاشك أن تصنيف كتب في ألفاظ الخيل، المطر أو النخل أو السلاح أو القوس، أو الأنواء، إنما هو تلمس مبكر "لمسألة العلاقات التي تنتظم مجموعة من الألفاظ على أساس دلالي، ويؤكد بعض اللغويين أن الشبه واضح بين معاجم الحقول الدلالية التي ظهرت حديثاً في بعض اللغات الأوروبية على يد "تراير" وغيره³ وتلك

¹ - عبد السلام المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الدار التونسية للنشر، تونس، دت، ص104

² - المرجع نفسه، ص161.

³ - عبد السميع أحمد، المعاجم العربية دراسة تحليلية، دار الفكر العربي، دط، لبنان، دت، ص 12.

التي صنفها لغويون قداماء من العرب. وأطلقوا عليها اسم المعاجم المبوبة وفقا لوحدة الموضوع، تمييزا لها عن المعاجم المجنسة.

ثامنا: أقسام الدلالة

من المباحث اللغوية التي أثارها الدرس الدلالي، بناء على العلاقات التي تجمع الدال بمدلوله، مبحث أقسام الدلالة وأنواعها (أنواع المعنى). فإذا كان تحديد معنى الكلمة يتم بالرجوع إلى القاموس اللغوي، فإن ذلك لا يمكن أن ينسحب على جميع الكلمات التي ترد مفردة أوفي السياق، « ولذلك ميز اللغويون بين معان كثيرة أهمها:

1. المعنى الأساسي أو التصوري: وهو المعنى الذي تحمله الوحدة المعجمية حينما ترد مفردة.
2. المعنى الإضافي أو الثانوي: وهو المعنى الزائد عن المعنى الأساسي، يدرك من خلال سياق الجملة.
3. المعنى الأسلوبي: وهو الذي يحدد قيم تعبيرية، تخص الثقافة أو الإجماع.
4. المعنى النفسي: وهو الذي يعكس الدلالات النفسية للفرد المتكلم.
5. المعنى الإيحائي: وهو ذلك النوع من المعنى الذي يتصل بكلمات ذات القدرة على الإيحاء نظرا لشفافيتها»¹.

تاسعا: المحاور الدلالية

يهتم الدالليون في هذا العلم بمجموعة من المحاور الرئيسية تتطلب ربطا بجوانب من الدراسات اللغوية، ثم تتفرع إلى وجهات تطبيقية وتحليلية يكثر فيها الاجتهاد وتتعدد فيها الآراء.

1. يتشكل المحور الأول من العلاقة الرمزية بين الدال والمدلول، والمنعكسات الاجتماعية والنفسية والفكرية (signifiant signifié referenda)

¹ - ملفور عبد الجليل، علم الدلالة، ص68.

2. المحور الثاني: يدور حول التطور الدلالي، أسبابه وقوانينه (Hangents).
(des sens والعلاقات السياقية والموقعية في الحياة والعلم والفن

(situation contexts)

3. المحور الثالث، يتصل بالمجاز وتطبيقاته الدلالية وصلاته الأسلوبية.¹

المطلب الثالث: الجهود البلاغية

إن الدارس لأي علم ينبغي عليه أولاً أن يعرف طبيعته بصورة مجملّة انطلاقاً من تدقيق تعريف له أو تحديد وظيفته، وإذا تمكن من ذلك استطاع أن يلج أصوله ويترك فصوله وفق رؤية فاحصة ونظرة ثاقبة، وهو ما يجلب له فهماً عميقاً، وذلك كان من خلال بيان جهوده اللغوية البلاغية.

وعلى ما مرّ وقدمناه فسنبقوم بإجمال مجموعة من التعريفات التي ألبست بها البلاغة أولاً، ثم نحاول أن نسقط تلك التعريفات على عديد الملاحظات ذات الصلة بها حتى نتعرف على النمو الطبيعي لهذا العلم.

أولاً: تعريف البلاغة لغة

البلاغة في اللغة تعني الوصول والانتهاء، يقال بلغ الشيء يبلغ بلوغاً وبلاغاً، وصل وانتهى، ومنه قول قيس بن الأسلت السلمي:

قالت ولم تقصد لقبل الخنا* ٠٠٠ مهلاً فقد أبلغت إسماعي.

«ويقال رجل بليغ، وبلغ حسن الكلام فصيح، يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه».²

إذا فكلمة البلاغة على إطلاقها تعني الانتهاء إلى أعلى درجات الشيء حتى لا يكون بعده شيئاً حسن. سواء أكان هذا الانتهاء في أمور مادية أم أمور معنوية.

¹ - فايز الداية، علم الدلالة العربي، ص 9

* الخنا: الفحش في الكلام

² - ابن منظور، لسان العربي، تح، عبد الله على الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، مصر، مادة بلغ، ج1، ص 346

وإذا قيدنا البلاغة بصفة العربية كنا قد جددنا المجال الذي سنتكلم فيه، إذا سنبص
جل اهتمامنا على ما يتعلق بالكلام العربي، لنبحث فيه عن الطرق الكفيلة به حتى يصل
إلى منتهاه ويؤدي معناه.

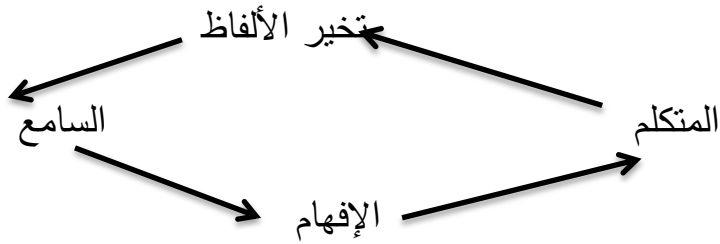
ثانيا: تعريف البلاغة اصطلاحا

لقد أورد الجاحظ (ت 255هـ) في كتابه البيان والتبيين العديد من تعريفات البلاغة
التي شكلت فيما بعد لبنات هذا الصرح ومنها:

1. تعريف عمرو بن عبيد (ت144هـ) بقوله: «تخير اللفظ في حسن الإفهام».¹

يشير هذا التعريف إلى أمرين: الأول اختيار اللفظ والثاني الإفهام، وهما
أمران مترابطان، بل ينبغي أن يخضع فيها الأمر الأول للثاني وإذا أخذنا
بميزان هذا التعريف كان علينا أن نصنف الكلام البليغ وفق مستويين:
أ. المستوى الأول متعلق بالسامع، ومدى فهمه لكلام المتكلم.

ب. المستوى الثاني متعلق بالمتكلم ومدى اختياره للألفاظ التي تؤدي غايته في
عملية الإفهام تلك، ويمكن توضيح ذلك في الشكل التالي:



2. تعريف بن المقفع: (ت142هـ) حيث يقول: «البلاغة اسم المعاني تجري في

أمر كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع.
ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابا ومنها ما يكون ابتداء.
ومنها ما يكون شعرا ومنها ما يكون سجعا، ومنها ما يكون خطابا ومنها ما

¹ - ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تح، عبد السلام محمد هارون، ط2، دار الجيل، بيروت، 1998م
ج1، ص114.

يكون رسائل، فعامّة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة، والإيجاز هو البلاغة»¹.

3. وكذلك يعرفها الخطيب القزويني (ت682هـ) حيث يقول: «مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته»،² فكلام القزويني يحتوي على ثلاث عتبات لغوية، يجب الوقوف عندها وتحليلها، إذ يعد تعريفه هذا من أشمل التعريفات لعلم البلاغة، وهذه العتبات هي: الكلام، الحال، والفصاحة. فالكلام يقتضي متكلما ومستمعا، أو متكلما ومخاطبا أو بعبارة أخرى باثا ومتلقيا، والحال وهو قسمان: أما اللغوي، فمقام التكثير ليس مقام التعريف مثلا، ومقام الحزن ليس كمقام الفرح. أما الفصاحة فهي ترتبط بأمرين: أولا: بالمتكلم وبطريقة أدائه، الثاني: بالكلام وطريقة بنائه.

ثالثا: فوائد علم البلاغة

1. أنها وسيلة إلى معرفة إعجاز القرآن الكريم
2. استجلاء ما في القرآن الكريم من معان وأحكام وأخبار وقضايا، فلا بد للناظر في القرآن من الإلمام بقواعد هذا العلم لمعرفة ما يدل عليه التكرار وما ينطوي عليه الحذف، وما يفيد هذا التأويل وغير ذلك مما يتصل بقواعد هذا العلم.

3. التدريب على المتكلم بالبليغ من القول.

4. القدرة على حسن الاختيار.

رابعا: نشأة البلاغة

¹ - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 115.

² - الخطيب القزويني، الإيضاح، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت - لبنان: (1424هـ - 2003م)، ص20.

لفن القول وصناعة الكلام في مجال الإبداع الأدبي أثر بالغ في شحذ العواطف

وتوجيه النفوس ووسيلته إلى ذلك كامنة في شكله وصياغته بدءاً بوحده الأولى، وهي الكلمة، تلك الأداة السحرية التي تميز بها الإنسان عن غيره من الكائنات الأخرى، وما فتئ الدارسون منذ أقدم العصور يدرسونها، ويحللون منها جوانب مختلفة لاكتشاف طاقاتها وأسرارها، وأسفرت تلك الدراسات والتحليلات عن نتائج كثيرة تضمنتها النظريات والقيم البلاغية في مختلف العصور والبيئات، ومن هذه النتائج التي تدور حول الكلمة مفردة ومركبة مع غيرها كما تدور حول أكثر طرائق التعبير ملائمة للمراد، وأشدّها تأثيراً في النفس، تألف ما يعرف باسم الدراسات البلاغية أو ما يطلق عليه اختصاراً اسم البلاغة¹ فنحن إذاً بإزاء دلالتين لهذا المصطلح، إحداهما القدرة على التعبير حيث يصوغ الشاعر أو الناثر كلامه مشتملاً على قيم وعناصر فنية يسمو بها على مستوى الكلام الجاري بين عامة الناس، ويبلغ بها من التأثير والدلالة على المعنى المراد ما لا يأتي بهذا النوع الأخير، وهذه الدلالة يمكن أن نسميها الدلالة الوصفية للكلمة، وهي الدلالة المعنية، حيث يصف إنسان شخصاً آخر ببلاغة القول وفصاحة اللسان.

الدلالة الأخرى ويمكن أن نسميها دلالة معيارية وهي أكثر شيوعاً من الأولى في مجال الدراسة والمقصود بها مجموعة المباحث التي تدرس الأصول والقواعد المتعلقة بفن الكلمة على المستوى الجمالي، وهي بهذا وثيقة اتصال بالنقد الأدبي²، ولم تنشأ تلك المباحث البلاغية المشار إليها من فراغ، في أي لغة من اللغات وإنما تبلورت بعد تأمل طويل وفحص عميق لأساليب التعبير في الأعمال الأدبية المختلفة، ومن ثم تراها تتخذ ابتداءً طابع الوصف لظواهر التعبير القولي في نص معين، ثم ما تلبث أن تتجرد من هذا الطابع، لتتحول إلى ما يشبه الأصول الثابتة والمعايير المستقرة التي ينبغي للمتكلم أن يتوخاها ويحرص عليها، كما يحقق لكلامه الأثر المنشود.

¹ - شفيق السيد، البحث البلاغي عند العرب، دار الفكر العربي، ط2، مدينة نصر القاهرة، 1416هـ/1996م، ص 13.

² - ينظر: شفيق المفيد، البحث البلاغي عند العرب، ص 13.

هكذا كانت بلاغة اليونان فيما انتهت إلينا في القسم الثالث من كتاب (الخطابة) لأرسطو، وهكذا كانت بلاغة العرب فيما حفظته لنا كتب التراث البلاغية، وفي هذا الصدد نشير إلى شيء من الفرق بين البلاغتين اليونانية والعربية في طبيعة النشأة لكل منهما فبلاغة اليونان - كما هي في كتاب أرسطو السابق - تدين في الجزء الأكبر من صورها وظواهرها للفن الخطابي بأشكاله المتعارف عليها في المجتمع اليوناني آنذاك، وقلما تستمد من الشعر، إذ كان الشعر بمفهومه القائم على المحاكاة نشاطا مسرحيا تمثليا أكثر منه نشاطا قوليا، ومن ثم لم يكن مصدرا أساسيا لاستمداد الظواهر الأسلوبية منه، ولعل هذا هو ما يفسر مسلك أرسطو من إلحاقه الجزء الخاص بالأسلوب أو العبارة الذي يشتمل على معظم الظواهر البلاغية بالخطابة دون الشعر، أما بلاغة العرب فإنها استنقت صورها من الشعر والنثر على سواء وإن كان اعتمادها على الشعر أكثر.¹

ومن المصادر المتميزة في نشأة البلاغة العربية مصدر عظيم الخطر لم يتهيأ مثله لبلاغة اليونان، وكان له دوره الفعال في تشكيل مسار البحث البلاغي عندهم، وهو القرآن الكريم فقد جاء بلغة العرب وتألف منهم.

خامسا: بعض المفاهيم البلاغية من خلال كتاب معاني القرآن للفراء (ت 207هـ)

1. الكناية: وهي في مفهومه الإخفاء فيقول في تفسير قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾² - الجلود هنا- والله أعلم وهو ما كنى به الله عز وجل عنه، كما قال: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾³ والغائط الصحراء والمراد من ذلك أو قضى أحدكم حاجة، وقد يكون الاختفاء في اللفظ كقوله تعالى: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا

¹ - شفيق المفيد، البحث البلاغي عند العرب، ص 13.

² - سورة غافر، الآية 20.

³ - سورة النساء، الآية 43.

جَلَّاهَا¹ جلا الظلمة، فجاز الكناية عن الظلمة ولم يذكر لأن معناها معروف.

2. **التشبيه:** وهو عنده مرادف للمثل والمثيل « ويقول معلقا على قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾². أراد بالوردة الفرس والوردة تكون في الربيع إلى الصفرة أميل فشبهه تلون السماء بتلون الوردة، وشبهت الوردة في اختلاف ألوانها بالذهب واختلاف ألوانه ويقال إن الدهان الدائم الأحمر، ويقول معلقا على قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾³. والسفر واحد الأسفار وهي الكتب العظام، شبه اليهود ومن لم يسلم، إذا لم ينتفعوا بالتوراة والإنجيل بالحمار الذي يحمل كتب العلم ولا يدري ما عليه»، وفي هذا المثال نجده قد فصل أركان التشبيه، وعمله هذا يعد خطوة نحو الأمام في تفصيل هذا اللون البلاغي.

3. **المجاز:** لم يتجاوز مفهوم الفراء للمجاز ذلك المفهوم الذي قدمه سلفه أبو عبيدة، فاقترصر عنده على المفهوم اللغوي فيقول: معلقا على قوله تعالى ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾⁴ فهل العسرى تيسير؟ فيقال في هذا إجازته بمنزلة قوله تبارك وتعالى ﴿وَيُبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. البشارة في الأصل تأتي على الخبر المفرح والसार، فإذا اجتمعت في كلامين هذا خير، وهذا شر، التيسير فيهما جميعا، كما تطرق الفراء لبعض المباحث البلاغية ومنها:

4. **الاستفهام:** وخروجه إلى معان أخرى، كالتوبيخ مثلا، كما في قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا

¹ - سورة الشمس، الآية 3

² - سورة الرحمن، الآية 37.

³ - سورة الجمعة، الآية 5

⁴ - سورة الليل، الآية 10

قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ. ¹ يقول: والعرب تستفهم بالتوبيخ ولا يستفهم كما يذكر التقديم والتأخير فيعلق على قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ ² إذا صار البيت يبسا، فهو غثاء وأحوى الذي قد اسود من العنق ويكون أيضا أخرج المرعى أحوى، فجعله غثاء، فيكون مؤخرا معناه التقدم.

«والجديد في كتاب الفراء والجدير بالاهتمام التفاته إلى نظم القرآن ووزنه، إذ لاحظ هذا النسق الصوتي، وحاول أن يتتبعه، ونراه في ملاحظاته التي أوردها مدركا تماما لوزن القرآن. .. وهو إذ يحاول أن يقارن بين وزن الشعر ووزن القرآن الكريم، لا يذهب بعيدا بل يريد أن يقول إن القرآن ما للشعر والكلام الموزون من صفات، ومن هذه الاعتبارات المتصلة بالنظم تجاوب الكلمات مع وزن الآية، ومراعاة رؤوس الآيات للنسق».

سادسا: أسلوب القصر والجهد العقيم في الدرس البلاغي

لم يتناول أحد من البلاغيين قبل عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) هذا الأسلوب ربما نجد شذارات يسيرة منه لدى بعض اللغويين تتعلق بدلالة اجتماع" ما "و"لا" في جملة واحدة أو توضيح معنى" إنما في الكلام لكن المعالجة الموسعة والنابعة من منطلق فكري معين هي التي نجدها عند عبد القاهر الجرجاني، فدراسته لدلالة النفي والاستثناء في الأسلوب، ودلالة" إنما "وما قد يكون بين كلا النوعين من الأساليب من تشابه واختلاف، كل ذلك كان في إطار نظريته العامة في النظم التي جاءت تطبيقاتها دراسة تفصيلية لخصائص التعبير في العربية، ودلالاتها في شتى المواقع³، وفي هذا الإطار تناول عبد القاهر الجرجاني" إنما "حين تدخل على الجملة، وربط ما بينها من حيث إفادة الاختصاص وبين "ما" أو"لا" من جهة، و"لا" العاطفة من جهة أخرى، فهي مثلها تفيد في الكلام بعدها إيجاب

¹ - سورة التوبة، الآية 3

² - سورة الأعلى، الآية 5.

³ - ينظر: شفيح السيد البحث البلاغي عند العرب، ص 187

الفعل لشيء ونفيه عن غيره دفعة واحدة فيحال واحدة، وليس كذلك الأمر في " لا فإنك تعقلهما معا في حالين، وهي ثانيا تختلف عن النفي والاستثناء في أنه يمكن الإتيان معها بـ "لا" العاطفة فيقال: "إنما هو درهم لا دينار" في حين أنه لا يصح في هذه العبارة نفسها أن يقال " ما هو إلا درهم لا دينار" *، كذلك تختلف عنهما في أنها تجيء لخبر يجهله المخاطب ولا ينفع صحته أولما ينزل هذه المنزلة.

تفسير ذلك أنك تقول: «إنما هو أخوك» و«إنما هو صاحبك القديم» لا تقوله لمن يجهل ذلك ويدفع صحته. ولكن لمن يعلمه ويقر به، إلا أنك تريد أن تنبهه للذي يجب عليه من حق الأخ وحرمة الصاحب. ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾¹. وذلك أن كل عاقل يعلم أنه لا تكون استجابة إلا ممن يسمع ويعقل ما يقال له ويدعا إليه. وأن من لم يسمع ولم يعقل لم يستجب، وأما مثال ما ينزل هذه المنزلة فكقول ابن قيس الرقيات:

إنما مصعب شهاب من الله *** تجلت عن وجهه الظلماء²

فقد ادعى في كون الممدوح بهذه الصفة أنه أمر ظاهر معلوم للجميع على عادة الشعراء إذا مدحوا أن يدعوا في الأوصاف التي يذكرون بها الممدوحين أنها ثابتة لهم، وأنهم شهرروا بها وأنهم لم يصفوا إلا بالمعلوم الظاهر الذي لا يدفعه أحد.

المطلب الرابع: الجهود الصوتية

عندما نتطرق بهذه الكلمات (علم الأصوات اللغوية) فنحن نقوم بجهود عضلية كثيرة تنتقل هذه الأصوات في الهواء إلى أذن السامع، أو آذان السامعين. وبعد أن تتلقاها طيلة أذن السامع، يقوم السامع بجهود (عقلية) أو (نفسية). لفهم معاني هذه الكلمات. ثم من الممكن لو أتيح للسامع أن يتكلم، أن يصبح (المتكلم).

*وتعليل ذلك أن (لا) موضوعة لنفي ما هو مثبت، وحين يقال " ما هو إلا درهم لا دينار" تكون قد نفيت ما يبق نفيه ضمنا في صدر الجملة.

¹ - سورة الأنعام، الآية 36.

² - ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات، تحقيق عزيزة فوال بابتي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1995، ص39.

هذا الصوت الإنساني وحده هو موضوع علم الأصوات اللغوية.

أولاً: لمحة تاريخية

شغل اللغويون قديماً بالنظر في الأصوات اللغوية، ولكن ما أوصلهم إليه نظرهم لا يبلغ من الدقة والإتقان ما وصل إليه المحدثون في أوروبا وأمريكا وروسيا. «وفيما يلي عرضاً وأما للمحاولات القديمة التي تضمنت ملاحظات عن أصوات بعض اللغات:

1. وإن أقدم ما أثر من ذلك كان علماء مجهولين، فأقدم صور الكتابة (أو الخط). يتضمن كل منها إدراكاً لأصوات لغة من اللغات، إذ تحاول أن تمثلها بعلامات كتابية منظورة.

2. وقد أثر عن اليونان وعن تلامذتهم الرومان وعن الهنود، وعن العرب ملاحظات صوتية كثيرة، والمادة الصوتية المأثورة، وعن اليونان نجدها في أقوال متناثرة في محاورات أفلاطون، وفي الشعر والخطابة لأرسطو، ونجد أكثرها في كتابات نحويهم مثل: ديونيزيوس تراكس، ودونيزيس هاليكار ناسوس»¹.

وقد أثر عن كل من اليونان والرومان والهنود العرب تصنيفاً لأصوات لغتهم حسب طريقة النطق على خلاف بينها في التفصيلات وفي الأسس التي يقوم عليها كل منها. فاليونان قسموا ما تسميه بالصوامت إلى (أشباه صائتة) وإلى (مغلقة). وقد اعتبروا (أشباه الصائتة) متوسطة بين الصوائت و(المغلقة)، وعلى أساس أن أشباه الصائتة، إن لم تكون مقطعا دون الاستعانة بصائت إلا أنها على أقل ما يمكن أن تنطق وحدها.

¹ - محمود السعران، علم اللغة، ص 75.

أما الهنود فلم يقسمون (الصوامت) إلى (مغلقة وأشباه صائتة) وضيقة*. وقد أقاموا هذا التقسيم على أساس صوتي هو درجة تقارب أعضاء النطق عند نطق أصوات كل قسم من هذه الأقسام.

أما تصنيف العرب لأصوات العربية حسب ما نسميه الآن -طريقة النطق- فهو ذلك التصنيف الذي يرجع إلى سيوييه، والذي توضع الأصوات العربية على أساسه في ثلاث طبقات هي: الشديدة، والرخوة، وما بين الشديدة والرخوة.

- والشديدة في هذا التصنيف هي: الهمزة والقاف، والكاف، والجيم، والطاء، والتاء، والذال والباء
- الرخوة هي: الهاء، الحاء، والغين، والخاء، والشين، والصاد، والضاد، والزاي، والسين والظاء، والتاء، والذال، والفاء.
- أما ما بين الشديدة والرخوة فتضم الهمزة، واللام، والميم، والراء والواو، والألف، (كألف ما).¹

ثانياً: المستوى الصوتي (أو علم الأصوات)

يدرس الأصوات الكلامية وتصنيفاتها من النواحي الآتية:

1. إحداث الصوت من حيث نطقه: والاستعدادات، والقدرات الجينية الوراثية التي تؤهل الإنسان لنطق أصوات الكلام، ويتناول هذا الجانب علم الأصوات النطقي.
2. بنية الأصوات: وهي في طريقها إلى أذن السامع، والجوانب السمعية المتعلقة بذلك يتناول هذا الجانب علم الأصوات النطقي.

* هذا المصطلح ترجمة تقريبية للمصطلح السانسكريتي الذي أطلقه نحاة الهند على مجموعة من الصوامت التي تعرف الآن بالإحناكية (fricatives) (كالفاء، السين والزاي (S.F.Z) وقد يدخل فيه جماعة (أشياء الصوائت)، مثل (W.Y)

¹ - ينظر: محمود السمران، علم اللغة، ص78

3. العمليات النفسية العصبية التي لها صلة بإدراك الأصوات، ويدرس هذا المجال علم الأصوات العصبي¹. أما علم الأصوات الوظيفي فيدرس وظائف الأصوات داخل الكلمة المفردة والعلاقات بينها من أجل تكوين معنى الكلمة، وهذا النوع متصل بالدلالة.

¹ - ينظر: محمد على يونس، فروع اللسانيات، <http://www.ta.satub.com/montada.f39/topic13.htm> الأحد 27 ديسمبر 2009.

الفصل الثاني:

الجهود اللغوية عند ابن خلدون من خلال كتابه

"المقدّمة"

المطلب الأول: علم اللغة

المطلب الثاني: علم النحو

المطلب الثالث: علم البيان

المطلب الأول: علم اللغة

مقدمة

قد عرف ابن خلدون هذا العلم فقال: " هو بيان الموضوعات اللغوية أي إثبات لفظ كذا لمعنى كذا ¹ لمعرفة المعاني التي وضعت للألفاظ ويقصد دراسة مفردات المعجم من حيث تركيبها الصوتي ودلالاتها، ودراستها وأوضاعها كما سماها السكاكي هيئات الكلمات، وهو ما يعني بصيغها الصرفية، وما يطرأ عليها من معان زائدة كما يمكن دراستها فيما تقضي إليه الذوات كالحركات الإعرابية والحروف التي تتركب داخل الكلمة وتغيراتها بما يولد دلالات مختلفة، والهدف المتوخى من هذه الدراسة هو حصر مفردات اللغة على مستوى الوضع والاستعمال، وهو ما يعرف بـ فقه اللغة الذي يدرس المفردة فيما وضعت له وما آلت إليه في معانيها بفعل الاستعمال.

وإن الذي حمل علماء العرب على حصر مفردات اللغة هو فساد لسان العرب بمخالطة العجم، فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضعه مخالفا لاستعمالهم فاحتج إلى هذا العلم لحفظ اللغة خشية أن ينغلق القرآن والحديث المدونين بها عن الإفهام وقد نوه ابن خلدون ² بجهود أولئك العلماء بداية من جهود الخليل في معجمه العين فعرض طريقة حصره لمفردات اللغة التي بناها على القلب ورتب فيها المفردات على مخارج الحروف، ثم جاء الزبيدي واختصر المعجم ليسهل حفظه، وألف بعدهما في المعاجم: الصحاح للجوهري والمحكم لابن سيده الأندلسي، ومنهم من اللغويين الذين تناولوا مفردات اللغة في مدلولها الحقيقي وفي مدلولها المجازي كما ألف في ذلك الزمخشري كتابا احتاج فيه إلى فقه اللغة واختص في هذا الباب الثعالبي الذي أفرد له كتابا سماه فقه اللغة بين فيه تحريف العرب للكلام عن مواضعه لعدم اكتفائهم بمعرفة أوضاعه الأولى، وأكثر من يحتاج إلى هذه التحريفات الأديب خشية إكثاره من اللحن وهو أخطر من اللحن في المفردات، ثم توجه

¹ - ابن خلدون، المقدمة، شرح وتحقيق: لوان بإخراج جديد، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان، ط1، 2003، ص 567.

² - المصدر نفسه، ص 568

العلماء بعدها إلى الاختصار في التأليف لتسهيل حفظها، فألف ابن السكيت الألفاظ وألف ابن ثعلب الفصيح.¹

ووقف ابن خلدون على خاصيات لغة العرب من حيث هي لغة تدل فيها الكلمات على كثير من المعاني التي تتحقق لها بالاشتقاق ما يمنحها تطورا وحياء لاستيعاب الظروف المتجددة، كما أنها لغة تمثل الإيجاز والاقتصاد في اللفظ على غير اللغات الأعجمية، وكذلك فإن الحروف والحركات والهيئات أي الأوضاع لها اعتبار في الدلالة كالمضاف والحروف التي تفضي بالأفعال إلى الحركات من غير تكلف ألفاظ أخرى، وليس يوجد في غير لغة العرب كحروف الجر²، فأما دلالات الحركات والإعراب وحروفه على تحديد المعنى النحوي يدخل فيما يترتب عليه فهم المقصود، وأما الهيئات والأوضاع فربما يقصد بها الجمل الاسمية أو الفعلية، المثبتة أو المنفية، الحذف، التقديم أو التأخير، وما اصطلح عليه ابن خلدون علم اللغة هو في الحقيقة فقه اللغة في بيان الموضوعات اللغوية التي حُصرت في المعاجم، وبيان استعمالها بين الحقيقة والمجاز، وكل ما يتعلق بوضعها واستعمالها.

وتلك الخصائص التي وقف عليها ابن خلدون في لغة العرب لم تكن نتاجا أسلمت إليه دراسة دقيقة، ومنهج علمي بل كانت صادرة عن نزعة قومية عقديّة تثبت تشييع ابن خلدون للغة العرب من حيث هي لغة المقدس، ومن ثم لم يكن من بدّ تفضيله لها على سائر اللغات بما فيها تلك اللغات التي تشترك مع العربية في بعض الخصائص والأرومة، فلو كان ابن خلدون ملما بلغات أخرى لما ذهب إلى الذي ذهب إليه، وإن وجد في لغتنا طابع الإيجاز الذي أنزله أصحابه منزلة الفصاحة في اللغة، فقد كان لهم ذلك بحكم طبيعة العقل العربي المحكومة لظروف بيئتهم، ولكن ليس هذا الطابع ما جعلها أسمى الملكات في نظر ابن خلدون حتى وإن أخذ بقوله صلى الله عليه وسلم: " أوتيت جوامع الكلم واختصر في

¹ - ينظر: ابن خلدون، المقدمة، ص 569.

² - محمد عيد، الملكة اللسانية في نظر ابن خلدون، دار الثقافة العربية للطباعة، 1979، تنظر ص 124.

الكلام اختصاراً¹ إنما رفعها ابن خلدون إلى تلك المنزلة لأنها كانت لغة المقدس وغابت عنه خصائص أخرى ترفع من لغة العرب وتصنفها ضمن اللغات السامية والحية.

أولاً: اللغة بين الاصطلاح والتوقيف

كل لغة وليدة لتطور تاريخي تدخل فيه مؤشرات عديدة ومتباينة، وثمة كانت اللغة أكثر من أي ظاهرة اجتماعية أخرى غير قابلة للتفسير إلا بفضل التاريخ، " إنه من الواجب أن توصف كل لغة في ذاتها دون إدخال أي اعتبار تاريخي، كما أنه من الواجب أن تحدد القواعد العامة لبناء اللغة دون أن نتساءل عن نشأة تلك المباني ولما كانت كل اللغات الحية منها والميتة تطبق في الواقع مبادئ مشتركة، فإننا بلا ريب ننساق إلى مشكلة أصل اللغة.²

وبين العرف والاصطلاح اللذين شغلا بال الدارسين قديماً وحديثاً في بحث أصل اللغة، فقد وجدنا ابن خلدون يعتبر اللغة وسيلة تعبيرية قائمة في بيئة معينة على عادة جماعية أعلى الاصطلاح، وهي في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم، هو حكم الطبيعة ذاتها التي تتيح للمتكلمين التواصل عبر قناة تواصلية تثبت بثبات الاصطلاح على الدلالات التي تعبر عنها الألفاظ والدلالة حسب ما يصطلح عليه أهل الملكة " فإذا عُرف اصطلاح في ملكة واشتهر صحت الدلالة، وإذا طابقت الدلالة المقصود ومقتضى الحال صحت البلاغة، ولا عبرة بقوانين النحاة في ذلك"³ فجلاء المعاني لا يكون إلا ثمرة لتضافر جهود المتكلمين باللغة، فالجماعة إذا تعاونوا على المراد قل فيه اللبس، وصحت فيه الدلالة ومن ثمة يشتهر.

واللغة فطرة أتاحت للإنسان دون سائر المخلوقات، وهذه الفكرة تضمنها حديث ابن خلدون في موضع (علم الحوادث الفكرية التي تتم بالفكر) فقال: " اعلم أن عالم الكائنات كلها متعلقات القدرة الإلهية وعلى أفعال صادرة عن الحيوانات، واقعة بمقصودها متعلقة بالقدرة جعلها الله عليها، فمنها منتظم مرتب وهي الأفعال البشرية، ومنها غير منتظم ولا

¹ - ابن خلدون، المقدمة، ص 566.

² - محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، دار النهضة، مصر، 1969، ص 459.

³ - ابن خلدون، المقدمة، ص 570

مرتب، وهي أفعال الحيوانات غير البشر " ¹، فإن ما يرتقي به الإنسان هو الفكر، هذا الفكر الذي يتجسد في العمل، والعمل تحكمه اللغة كوسيلة للتعاون والتفاوض ولذلك ² اعتبر فلاسفتنا ومتكلمونا الإنسان حيوانا ناطقا، فما الإنسان لولا اللسان إلا صورة ممثلة أو بهيمة مهملة. ³

فوجود الإنسان اقتضى استعمال اللغة اقتضاء يميزه عن سائر الموجودات فالحقيقة أن الإنسان ملهم بفطرته أصول الحياة، وليست اللغة بأكثر من أن تكون بعض أدواتها التي تعين عليها، ولذا تراها في كل أمة بمقدار ما تبلغه من الحياة الاجتماعية قوة وضعفا، وإذا كان من أصول الحياة الاجتماع، فمن أصول الاجتماع اللغة وهذه من أصولها المواضعة، فقد فطر الإنسان من الله بأن هياه بيولوجيا للتركيب وأداء الظاهرة اللغوية إنه الاستعداد بالفطرة لاكتساب اللغة، وتتقرر اللغة ملكة مكتسبة بالمران والتكرار في أداء كلامي بعضو اللسان يستعملها المتكلمون فعلا إراديا للإفادة بالمقصود كما قرر هذا ابن خلدون.

وحقا إن اللغة تقوم إلهاما ثم اكتسابا والقول بغير ذلك ينافي العقل، ذلك أن اللغة سمة بشرية أودعها الله البشر، ثم كثرت معانيها واستعملت واتسعت باتساع حاجات الناس، ولو كانت إلهاما لما كانت على هذه السعة في التصرف في أسمائها المتنوعة، ورغم تباين اللغات وتعددتها فإن أي طفل عاد يمكنه أن يتعلم أية لغة يحتك بها في محيطه اللسان مما يوحي باشتراك المخلوقات البشرية في بنية معرفية محددة تسمى بالملكة اللغوية وهي ملكة تتعلق بنسبة التمثل الذهني للغة. ⁴

فحين نقول إن اللغة إلهام ثم اتسعت باتساع حاجات الناس، فإنه يمكننا القول إن اللغة وضع من أوضاع المجتمع، وصياغة من صياغاته يلبي بها حاجته، فتتكامل اللغة في

¹ - ابن خلدون، المقدمة، ص 449.

² - تاريخ آداب العرب، الراجعي، دار الكتب العلمية، ج1، ط1، 2000. ص 46.

³ - الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، المجمع الإسلامي، بيروت، ط 3، د.ت، ص 32.

⁴ - عبد القادر الفهري، اللسانيات واللغة العربية، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط1، ص 42.

بنيانها وتطرد في استعمالاتها مع الزمن، ولو توقفت عند حد الفطرة الغريزية في دماغ البشر قبل أن يصطنعوها ويتعلموها لما تشكلت لهم لغة أو تطورت داخل المجتمع. وكذلك كان شأن عربيتنا نشأت ضعيفة شأن اللغات ثم اتسعت تصاريفها باتساع العمران وتواضع العرب على الألفاظ بعينها، ثم توارثتها الأجيال في الحقب المتتالية وكان الثقل الذي أثبتته العرب هو المعقد مقاسا حيث أثبتوا لفظ كذا المعنى كذا ولا تزال الأوضاع ثابتة فيما استعملت فيه أول مرة، "ولا تقل إنهم وضعوها لأنه متعذر وبعيد، ولم يعرف أحد منهم وكذلك لا تثبت اللغات بقياس ما لم نعلم استعماله (...). لأن الحد راجع إلى المعاني بيان أن مدلول اللفظ المجهول الخفي هو المدلول الواضح المشهور¹ وليس هذا القياس لقياس الفقهاء في إثبات أحكام الدين كالذي قاسوه من ماء العنب على الخير بحكم الإسكار الجامع، فليس كذلك حكم أوضاع اللغة.

فليست اللغة قرارا سياسيا أو ثقافيا ألترتمته مجموعة من الأفراد في بيئة ما بل هي كيان طبيعي يستمد كيانه من عصور سابقة، إنها درس تاريخي طويل مداره على التواطؤ والاصطلاح، وزيادة حاجة الإنسان إلى أسباب الاجتماع في صنع العمران، فكان سبب وجود هذه المؤسسة هو التكافل الجماعي مثلما أن تعايش الأفراد في خلايا جماعية هو الكلام ذاته، فلولا حاجة الناس إلى المعاني وإلى التعاون لما احتاجوا إلى الأسماء، فاللغة كما يعتبرها عالم اللغة السوسيري خلق إنساني ونتاج للروح البشرية، تتميز بدورها كأداة للتواصل ونظام من الرموز المخصصة لنقل الفكر، فهي مادة صوتية لكنها ذات أصل نفسي واجتماعي".²

ثانيا: دواعي التوسل باللغة

لم يبحث ابن خلدون مشكلة أصل اللغة تفصيلا ولكنه أكد على أنها أداة امتلاكها الإنسان للتعبير عن فكره وليفيد بالمعاني القائمة في نفسه والمتصورة في ذهنه، وهذا هو

¹ - ابن خلدون، المقدمة، ص 570.

² - علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته، صلاح فضل، دار الشروق، 1998، ص 10.

حدها من حيث هي دلالات في علامات صوتية مصطلح عليها فتقوم مقام الموجودات التي يقف منها الإنسان موقفا فيحاول الإفضاء ما حصل له منها، فتتولد لديه تصورات من الوجود يكشف عنها في تحاوره مع الغير في جهاز علامي مصطلح عليه سلفا طلبا للبيان الذي خص الله به الإنسان كما خصه بالفكر دون سائر الحيوانات، فلإنسان " طبيعة مخصوصة " ¹ فطر عليها كما فطر على سائر مبتدعاته، وذلك الفكر هو وجدان حركة التنفس، ويوجد في البطن الأوسط من الدماغ " ² ولا يتم فعل الإنسان في الخارج إلا بالفكر " فأخر الفكر هو أول العمل وأول الفكر هو آخر العمل³ فكما أودع الله الإنسان القدرة على النطق والبيان بما وهبه من ألفاظ نطقية تمثلها لسانه، فكذلك وهبه الأفكار في الدماغ وبقي على الإنسان أن يخرجها باللغة، " فهذا الفكر وفطرك عليه كما قلناه، وحينئذ فارجع به إلى قوالب الأدلة وصورها فأفرغه فيه، ووفقه حقه من القانون الصناعي ثم أكسه صور الألفاظ، وأبرزه إلى علم الخطاب والمشافهة، وثيق العري صحيح البيان".⁴

فقد ظهرت اللغة مع العمل الذي بدأ عقب الفكر عند الإنسان، وأول فكره كان بحثا عن الغذاء ليضمن بقاءه، فتوسل باللغة ليستقيم تعايشه مع غيره ويتعاونوا على المنافع واشتقاق حقائق الأمور كما قرره حازم القرطاجني⁵، ولكن اللغة لم تكن كلامية بل كانت إشارية وحكاية للصوت الطبيعي والحيواني عن طريق الصراخ والصيحات، ثم ارتقت قدرة النطق لدى الإنسان، وتحولت إلى قدرة كلامية لما تقدم في علاقاته الاجتماعية مع المحيطين به، وارتقت معها أدواته، إذن لما بدأ الاجتماع الإنسان للغة يرتقي " يومئذ بدأ الاختراع الحقيقي للغة، وأمثلة ما يظن في ذلك أن الإنسان جعل يقلب المقاطع الثنائية التي

¹ - ابن خلدون، المقدمة، ص 553

² - ينظر: المصدر نفسه، ص 554

³ - ينظر: المصدر نفسه، ص 548

⁴ - ينظر: المصدر نفسه، ص 554

⁵ - حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن خوجة، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية،

1966، ص 71.

عرفها على كل الوجوه التي تحدثها آلات الصوت، فلما استتمّ صورها ارتحل المقاطع الثلاثية فدارت بها الحروف دورة جديدة وفشت الألفاظ أخرى غير التي عهدا، فتواضعوا على اعتبار المقطع الثنائي أصلا في مدلوله (...) ثم جعلوا كل صورة تتحصل من زيادة حرف عليه فرعا من هذه الدلالة، ثم استفاضوا في الاستعمال على هذا التركيب بالقلب والإبدال وبذلك اهتدى إلى سر الوضع (...).، ولكن هذا الذي أتى على اللغة إنما تم في دهور متطاولة، وعلى طريقة وراثية بطيئة لأن الجماعات الإنسانية يومئذ لم تكن أكاديميات (...) أو مجالس علماء يبيث فيها الرأي وتقطع الكلمة، ولكنها كانت طبيعية، وأعمال الطبيعة لا حساب لها في عرف الإنسان.¹

وساوق تلك الطبيعة الفكرية الصناعة المنطقية التي هي صورة لفعالها، ويحصل عليها بالإدراك الساذج أو بصناعة عن علم المنطق لكنها محتاجة في جميع الأحوال إلى اللغة المتمثلة في " معرفة الألفاظ ودلالاتها على المعاني الذهنية²، والمنطق فكر ولكنه صناعي وابن خلدون لا يفضل على الطبيعي مادامت الطبيعة تصنع الأشياء أحسن ما يصنعها الإنسان والاعتماد على المنطق الصناعي إنما هو هروب لسد العجز في حل اللغز الذي يمثل علاقة التعبير والفكر، فهو نوع من التجريد لأن مستوى الكلام قد يتضرر إذا كان وزن التعبير أثقل من وزن التفكير لذلك يحذر ابن خلدون مقتنص المطلوب من علمه حين يحاول هناك حجب الألفاظ بالمناقشات في الشبهات فيحول دون تحصيله، ولهذا يلجأ البعض إلى سد هذه الثغرات بالعلاج الاصطناعي (المنطق) فيتخذونه وسيلة تسحر العقول خشية الوقوع في الخطأ الفكري، وبما أن المنطق الأرسطي في نظر ابن خلدون هو أمر صناعي مساوق للطبيعة الفكرية ومنطق عن صورة فعلها فإنه يمكن الاستغناء عنه حتى يمكن أننا نجد الكثير من فحول النظار يحصلون مطالب العلم دون صناعة المنطق.

¹ - الرافي، تاريخ آداب العرب، ص 48.

² - ينظر: المصدر نفسه، ص 494.

ثالثا: اللغة ظاهرة اجتماعية

ومما لا مشاحة فيه أن اللغة وسيلة توصل بها الإنسان للتخاطب والتواصل بصورة اختيارية وقصدية تجري في عمليات مركبة ومعقدة منها ما يدرك بالسمع في ألفاظ منطوقة، ومنها ما يدرك بصرا في ألفاظ مدونة ومخطوطة، وهي الوظيفة التي أبان عنها قول ابن خلدون " اعلم أن اللغة في المتعارف عليه هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام"¹، وما لم يكن تعبير المتكلم عن مقصوده بشكل قصدي للإفادة به فليست تلك العبارة لغة لأن مستخدم اللغة يكون غرضه الأول التعبير عن مقصده لا ليبر عن نفسه فحسب، بل لإخبار المستمع والتأثير فيه مما يحقق لهما مبدأ التواصل والتعاون و" لا تكون اللغة إبلاغية مجرد تعبيرها عن أشياء مدركة، وإنما يلزم أن تكاشف اللغة سامعها معان كان إدراكها لها خلوا منها قبل أن يتلقاها، وهكذا يتأسس ما يمكن أن نصلح عليه بنسبية القيم الوظيفية للغة إذ ما يمكن أن يكون كلاما مفيدا لبعضهم قد لا يفيد بعضهم الآخر، وما يكون لغة في موضع قد لا يكون لغة في موضع آخر"²، ما لم يكن للكلام إفادة فإنه موات لا عبرة به.

فتعريف ابن خلدون اللغة لا يخرج في عمومه عما توصل إليه علماء اللغة المحدثون من حيث إن لها وظيفتين أو لنقل وظيفة مزدوجة: وظيفة تعبيرية وأخرى انفعالية، فتتعلق الأولى بالمتكلم الباث، وتتعلق الثانية بالمتلقي المستقبل ولا يقوم الكلام على هذا المستوى إلا إذا اشترك طرفا العملية في نظام لغوي واحد ضمن بيئة لغوية متجانسة، فاللغة لا تكون فعلا إلا إذا أصطلح شخصان على ربط حدث معين بدلالة معينة بغية التواصل³

¹ - ابن خلدون، المقدمة، ص 565

² - عبد السلام المسدي وعبد القادر المهدي وحمادي حمود، النظرية النسانية والشعرية في التراث العربي، الدار التونسية للنشر، المطبعة المغربية، 1985، ص 19

³ - عبد السلام المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، الدار التونسية للنشر، المطبعة العربية، تونس، ط1، 1986، ص

فهي مؤسسة لغوية تحولت إلى مؤسسة اجتماعية قامت أساسا على عقد ضمني بين أفراد المجموعة البشرية.

ولعل البحث اللساني هو ما أفضى بكيفية إضافية إلى إبراز وظيفة اللغة الإبلاغية فانكبت على فحص مكوناتها الداخلية وكفت اللغة بذلك أن تكون مجرد ما هي مجردة، بل أصبحت ظاهرة بشرية لم يعد ممكنا البحث في علة وجودها أو شرعية بقائها خارجا عن الحدث البشري، فاللغة - كما يقول فندريس¹ - نظام معقد تمس فروعاً من المعرفة مختلفة وتعين بها الطوائف المختلفة من العلماء، فهي فعل فيزيولوجي من جهة إنها تدفع عددا من أعضاء الجسم الإنسان إلى العمل، وهي فعل نفساني من حيث إنها تستلزم نشاطا إراديا للفعل، وهي فعل اجتماعي من حيث إنها استجابة لحاجة الاتصال بين بني الإنسان، ثم هي في النهاية حقيقة تاريخية لا مرأى فيها، وفيها نعثر على صور متباينة وفي عصور بعيدة على سطح المعمورة.

وأكثر هذه الجوانب والجهات تضمنها تعريف ابن خلدون، فالجانب الفيزيولوجي يتعلق عنده بالعبارة التي تتألف من حروف أودعها الله لسان الإنسان متمثلة في مخارج يتحدد بها تركيب الألفاظ، والجانب النفسي متعلق بإرادة المتكلمين فيها بقصد إفادة الكلام استجابة لرغبة نفسية في إيصال المعنى المضمّر إلى الغير، أما الجانب الاجتماعي يتعلق بأن الكلام عبارة مؤلفة للتخاطب والاتصال، ولأجل ذلك تداخلت اليوم عدة علوم في دراسة اللغة في جوانبها المعقدة بين علم النفس اللغوي وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا واللسانيات.

والذي يتوجب بيانه في هذا المقام هو أن ابن خلدون لم يدرس اللغة في نحوها أو صرفها أو بلاغتها وإنما نظر في ملكتها وعلاقتها بالفكر المساهم في تكوين بنيات اجتماعية مادامت اللغة ضربا من العلوم والصناعات ينتجها العمران البشري، وبذلك وفق ابن خلدون وهو عدها من ضمن ما يصيب العمران من عوارض، فهي كشف عنه وإظهار لحقائقه

¹ - فندريس جوزيف، اللغة، تعريب: عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلومصرية، ص ه من المقدمة

بوصفها أداة إخبارية عن الواقعات عندما يحاول المتكلم أو ناقل الخبر أن تطابق بين الخبر والواقع محيطا بأحوال العمران المتغيرة والمتجددة بفعل حقه اللغة باعتبارها أنجع أداة إبلاغية عن تلك العوارض حتى وإن ظل ذلك الإبلاغ وتلك الإحاطة حقائق العمران قاصرين عن إدراك حقيقته كاملة، فإن اللغة تبقى أداة الإنسان إلى إنجاز العملية الإبلاغية في المجتمع لتضمن التعايش الجماعي إلى مؤسسة إنسانية.

وقد أدرك ابن خلدون حقيقة اللغة الوظيفية ودواعي التوصل بها، وغايات الإنسان من تصريف أوجهها، ومن أهم الدواعي أدائها للوظيفة التعبيرية ذلك أن الكلام بين الناس إنما هو نقل لما في النفس إلى الغير، وهذا الكلام جهاز متولد على الدوام مما يجعل اللغة منظومة توازي منظومة العقل، فكما أن تفكير الإنسان قاده أن يساهم في بناء نفسه وسد عجزه للحصول على الغذاء كمقوم للبقاء ما كان ذلك مدعاة للمفاوضة والتعاون " فهو محتاج للمعاونة في جميع حاجاته أبداً، وذلك لابد فيها من المفاوضة " ¹ وهذا التعاون شبيه به التعاون الذي يجري بين مفردات اللغة التي أراد الإنسان ما أن يتغلب على مقتضى الأحوال المتعددة والمتجددة.

فلطالما كانت اللغة مهياًة لمعرفة الطابع الفكري للأمم، فقد حملت هموم الإنسان وأعباء نفسه، وإنه لما أحس بالعجز أمام نفسه وأمام قوى الطبيعة القاهرة حاول سد عجزه بالمعاونة ليضمن وجوده ضمن الجماعة، فكانت اللغة أدواته إلى ذلك، وصحبته في كل مراحل بناء حياته فارتقت برقي فكره، وتوسع تصوراته، وكثرة صناعاته، وتعددت تبعاً لذلك استعمالات اللغة فكانت سجلاً لرقيه حيناً ولضعفه حيناً آخر لأنها ظلت دائماً متعلقة بالفكر الإنسان فغدت صورة توازي مداركه في استيعاب الكون وجوداً وعقلاً، الأمر الذي جعل ²فلاسفة اللغة يدركون أن بنية اللغة تقوم على بنية الوجود، كما رأى العالم الأمريكي لينبرغ

¹ - ابن خلدون، المقدمة، ص 54.

² - حنفي بن عيسى، محاضرات في علم النفس اللغوي، مطبوعات المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائري، تنظر ص 28

¹ أن الظاهرة اللغوية هي شكل عضوي مرتبط بالتطورات الفكرية والذهنية متعلقة بالإنسان وحده، وهذا يعني أننا لا نستطيع أن نعرف تاريخ اللغة وأصولها إلا إذا عرفنا تاريخ الإنسان وأصله، ولعمري إنه لرأي صحيح، وذلك لأن اللغة ليست مجرد رموز اعتباطية تعسفية وحسب بل إنها الجزء الذي يتجزأ من الإنسان القادر على صنع الحضارة البشرية من خلال تلك القوة السحرية العجيبة التي تدعي اللغة.

فاللغة هي التي تولف بين أجناس الأمة أو تفرق بينهم، ولا نفهم مجتمعاً ما إلا إذا فهمنا الفرد ولا نفهم الفرد إلا من خلال اللغة وباللغة نفسها، فليس من السهل -إذن - عزل اللغة عن الفرد وما هو إلا " محاولة فاشلة لتجريده من فكره أي محاولة القضاء على وجوده لأن الفكر اللغوي يعمل غريزيا من خلال لغة الأمومة أو لغة مسقط رأسه وعلى بلورة كل المعطيات والمفاهيم مجردة ومجسدة حسب الحالات المتصلة بالعادات اللغوية في لحظة لا واعية وهكذا أصبحت هذه اللغة بمثابة الصورة التي يشكلها الفكر عن الوجود، وهو ما عبر عنه دولا كروا بطريقته الخاصة حين قال: اللغة دالة الفكر".²

وكذلك كانت اللغة عند ابن خلدون " ترجمانا عما في الضمائر"³ ووسيلة للإبانة عن فكر أصحابها وأغراضهم النفسية لتحصل ما الإفادة محققة مبدأ التواصل الذي يقوم على أساس من أن العملية اللغوية تكون قصدا للإفادة والإفهام، وما لم يتهيأ هذا الأساس فلا عبرة بالكلام وه وموات مهمل، وهذا في حد ذاته ما أدركه بعض دارسي اللغة العربية قبل ابن خلدون وأجملوه في قولهم أن اللغة " أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم".⁴

والفضل في نشأة اللغة الإنسانية عامة يرجع إلى المجتمع نفسه، فلولا اجتماع الأفراد على قضاء حاجهم ما وجدت لغة، وهي لغة تنشأ طبقاً لقانون النشوء والارتقاء تجري كتابة

¹ - مازن الوعر، قضايا أساسية في اللسانيات، ط1، 1981، ص 332

² - عبد الجليل مرتاض، في رحاب اللغة، ديوان المطبوعات الجامعية، 2004، ص 35.

³ - ابن خلدون، المقدمة، ص 563

⁴ - ابن جني، الخصائص، تحقيق: محمد. علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1953، ج1، ص 31

أو شفاهة وتبين كما يبين العمل السياسي أو العمل اليدوي، وتصور ابن خلدون لطبيعة اللغة قد يكون مستمدا مما كتبه علماء العربية قبله أمثال الجاحظ، الجرجاني والسكاكي ولا سيما هذا الأخير الذي اعتمد في تفسيره لنظم القرآن وبيان إعجازه على ما يسمى بالتوليد المعنوي، الأمر الذي نبه إليه ابن خلدون.

رابعاً: في البحث اللغوي الحديث

وتوجهت اللسانيات إلى سبر الفاعلية المتعلقة بالكفاءة أو المقدرة اللغوية التي تعبر عن نظام القواعد النحوية الموجودة في دماغ الإنسان المتكلم¹ وهذا النظام يولد جملاً صحيحة وبالتالي يفسرها تفسيراً صحيحاً، فإذا أثبت هذا الجانب فإن الهدف الثاني هو سبر النحو الكلي ومعرفة مبادئه وإجراءاته.

بينما نجد علم النفس في اتجاهه اللغوي يشتغل على الأداء اللغوي وليس المقدرة اللغوية فتوجه إلى دراسة الاستعمالات الحقيقية للغة ثم تفسيرها والاهتمام بالأشكال اللغوية الموقرة والمنظرة للمقدرات اللغوية، تلك الأشكال التي تمر بمراحل من النمو والنضج عند اكتساب الطفل للغة معينة، " ويمكننا القول إن النظرية النحوية للغة معينة ثم النظرية النحوية الكلية للغات البشرية كلها يمكن أن تعتبر وجهاً من وجوه علم النفس المتعلق بالنظام البيولوجي للقواعد الكلية وتحولاتها في اللغات البشرية " ²، فصار علم النفس اللغوي من أكثر العلوم الحديثة عناية بمشكل اللغة مؤكداً على أنه يستحيل دراسة العقل الإنسان في تطوره ما لم تكن لدينا معرفة كافية بالكلام الإنساني.

واضح من تجاربهم أن الطفل عندما يتعلم الأسماء لا يتعلمها أصواتاً فارغة من الصور الذهنية بل ينطبع في ذهنه مجموعة من الأصوات لها علاقة بحاجاته البيولوجية يستجيب لتلبيتها في الوقت نفسه، فتتوطد علاقته بالعالم الخارجي، وتكون أسماء الأشياء

¹ - مازن الوعر، قضايا أساسية في اللسانيات، ينظر ص 195

² - عبد الله شريط، الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1982، ص 577

بمثابة العصا في يد الأعمى¹ وتكون تلك العمليات بمثابة رحلات استكشافية في عالمه الواسع، وربما يجوز لنا أن نقارن هذه المرحلة عند الطفل مرحلة التعلم عند الكبار اللغة أجنبية التي لا تتوقف على تعلم الأصوات المنطوقة بل تعلم طرائق تفكير في تلك اللغة، إنها اكتشاف العالم جديد بالكلمات والقوالب، وإن وجد فرق بين المرحلتين فيمكن أن يكون في الصعوبة التي تكتنف تعلم الكبار عند محاولة نسيان اللغة الأولى والتجرد من قوالبها الذهنية وصورها التعبيرية.

فإن اللغة لا يتعلمها الطفل بمعزل عن المجتمع كما هو الحال في المشي والوقوف الذين يهتدي إليهما غريزيا، فإن كان الإنسان لم يفكر في كلامه الذي زاوله كما يزاول عاداته الاجتماعية من حيث يولد له المنفعة لسد حاجاته وربط حبل الأسباب بينه وبين الجماعة فإننا لو عزلنا طفلا عن الجماعة لنشأ أبكما إذ يولد الطفل وعنده القدرة على اكتساب لغة معينة، قدرة لا تنمو إلا إذا اندمج في أناس متكلمين، فهو يكتسبها رأسا من المحيط وقد منح ذلك الاستعداد " الذي يجعله يتلقف البنية اللغوية لأية أمة مهما كان نوعها أو شكلها "2. وهذا الاستعداد والتهيؤ سماه تشومسكي بالفطرة الغريزية.

وتلك الفطرة الممنوحة للطفل تمنحه المقدرة على الخلق والابتكار على غير ما ورد عند المدرسة السلوكية التي رأت أن الطفل يتعلم اللغة وهو صافي الذهن ينقش فيه ما يشاء، وعند الحاجة يلجأ إلى ذلك المخزون، فيختار ما يناسب منه لغرضه³ فهو يستعمل اللغة استجابة لمثيرات خارجية باعتبار اللغة شكلا من أشكال السلوك الفيزيولوجي، والحقيقة أن الطفل يكتسب لغته بالسماع والحفظ والمحاكاة مكتسبا في الوقت ذاته قواعدها الضمنية مما يثبت أن اللغة إلهام واكتساب، إذ يلهم الإنسان الاستعداد لاكتسابها من المجتمع رأسا.

¹ - المرجع نفسه، ص 578

² - صالح الكشو، مدخل إلى اللسانيات، الدار العربية للكتاب، 1979، ص 39 - 329، وينظر الأسلوبية والبيان العربي، عبد المنعم خفاجي ومحمد السعدي فرهود وعبد العزيز شرف، الدار المصرية اللبنانية، ط1، 1992، ص 22- 23

³ - نايف الخرماء، أضواء على دراسات لغوية، 1978، ص 120.

فالطفل يكتسب اللغة بالاحتكاك والمشاركة مع من حوله، فأكثر سلوكنا الاجتماعي سواء كان لغويا أو غير لغوي قد استقر في أعماق جهازنا العصبي عن طريق المشاركة المتكررة، وقد جعل برير والمحاكاة أهم عامل في تعلم اللغة، أما إيشترن فيعتبرها العامل الأول والأكبر في تعلم اللغة.¹

خامسا: اكتساب ملكة اللغة

إننا لا نولد عارفين للغة استعمالا وفهما بل نحن مجبلون على اكتسابها، واستعمال الجهاز اللغوي لا يقتصر على ما يجري لدينا عندما نتحدث أو نفهم ما يبث إلينا فيما يعرف بالأداء اللغوي، وإنما يشمل أيضا كشف ما به لنكون قادرين على أدائه، " فإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يتكلم باللغة إلا إذا سمع صيغها الأولية في نشأته، فإن سماع تلك الصيغ ليس هو الذي يخلق المقدرة اللغوية في الإنسان، وإنما يقدر شرارتها فحسب، وهذا ما يفسر الطابع الخلاق في الظاهرة اللغوية، وهذان المظهران سماهما تشومسكي (الوضع والاكتشاف)، فالإنسان يخلق اللغة، وهو يكتشفها شيئا فشيئا، وخلقه لها مرده أنه يتمثل بواسطة جوهره المفكر نظاما من القواعد المنسجمة، وذلك النظام هو النمط التوليدي لتلك اللغة، وهو الذي يسمح بإدراك محتوى الكلام دلاليا مهما كانت جدة الصياغة التركيبية، فكأن لكل متكلم معرفة خفية بالنحو التوليدي للغة ".²

فكل إنسان متكلم ينتمي إلى بيئة لغوية متجانسة، ويتقن لغته يمتلك معرفة ضمنية باللغة فيما يسمى بالكفاية اللغوية، فإنه إذن يستعمل تلك الكفاية بغية التواصل³ وهذه الفكرة

¹ - تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، مكتبة الأنجلومصرية، 1958، ص 68- 80- 87، وينظر إرتقاء اللغة عند الطفل من الميلاد حتى السنة السادسة، ص 101 و779.

² - عبد السلام المسدي، النظرية اللسانية والشعرية، ص 146- 147.

³ - المكون الدلالي في القواعد التوليدية والتحويلية، مجلة الفكر العربي المعاصر، ع 18، ع 14 / ع 198، ص 12 عن جاكسون، ص 126، 124 وينظر نشأة اللغة عند الإنسان والطفل، علي عبد الواحد وافي، مطبعة العالم العربي، القاهرة، 1971، ص 35.

التي أثارها تشومسكي شبيهة بتصور جاكسون الذي بناه على أن الإنسان في تواصله متكلم مستمع لديه معرفة بقواعد لغته تسمح له بتوليد جمل لم يسبق أن سمعها، فإن كان تشومسكي اهتم بكيفية استعمال تلك القواعد المخترنة في البنية السطحية وعلى أوالية التحولات اللغوية والتركيبية التي تتم عند المرور من الكفاية إلى الأداء، فهو ينطلق من البنية السطحية الظاهرة عبر تتابع الكلام الملفوظ إلى البنية العميقة التي أوجدت ذلك التابع تبعاً لقواعد اللغة، فهي حقيقة عقلية قائمة يعكسها التابع الكلامي المنطوق الذي يكون البنى السطحية.

فأثبت تشومسكي النظام الخلاق للغة تبعاً لنظام قواعدي معين، واكتساب اللغة لا يرتبط بحفظ وسماع الجمل والتراكيب بل يركز على إنشاء تراكيب جديدة غير محدودة¹، وهذا ما تبنته النظرية التوليدية التفريعية على غرار النظرية البنيوية أو الوظيفية التي اعتبرت الإنسان مجرد آلة مقلدة، وهي نظرية يمثلها بلومفيلد في أمريكا، ومارتيني في فرنسا، معتبرين اللغة عادة تكتسب بالمحاكاة والتقليد" في سلوك اجتماعي تكتسب آلياً عن طريق التمارين الشفوية، والكتابة المكثفة، وهذا توجه لم يخل من نقد لتركيزه على المحاكاة دون اعتبار للمقدرة الإبداعية عند الإنسان المتكلم في إنجاز الفعل للكلام.

وابن خلدون قد كشف في آرائه اللغوية عن تصور قريب جداً من تصور النظرية التوليدية، إذ بحث في عمق اللغة التكويني من حيث اكتسابها وملكتها في علاقة عضوية بينها وبين دافع الحاجة إلى التوصل بها، ومثبتاً دور الاستعمال في ترسيخ أنماط الكلام بما يطابق قانون المنعكس الشرطي في علم النفس التجريبي²، فإذا هو يمسك بأرقى المفاهيم الذهنية، وأدق التصورات من خلال تحديد مفهوم الملكة، وعزل تمامها عن دائرة المفردات بل حصر حصولها في مبدأ التركيب جاعلاً بلوغ الغاية تكرار الفعل اللغوي بالمعاونة والارتياض

¹ - نظريات حصول الملكة، المجلة، ص 155، وينظر نصوص مختارة من فلسفة ابن خلدون، عبد الله شريط، طبع

المؤسسة الوطنية للفنون، وحدة الرغبة، 1981، ص 124

² - عبد السلام المسدي، النظرية اللسانية في التراث العربي، ص 20.

ليؤكد أن هناك فرقا كبيرا بين اللغة وعلم اللغة، فاللغة ذات كيفية، وعلم اللغة علم بكيفية، وإحكام اللغة علما لا يعني إحكامها عملا، وقد قال في هذا الشأن " اعلم أن اللغات كلها شبيهة بالصناعة إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني، وجودها وقصورها بحسب تمام الملكة ونقصانها وليس ذلك بالنظر إلى المفردات، وإنما بالنظر إلى التراكيب" ¹، فالمتكلم يتناول ما أورثه الاستعمال إياه من أمور نوعية يتخذها منوالا ينسج عليه من شخصيته ولحمته وكذا يكون القالب نوعيا والإنتاج شخصيا. ²

ولا جدال في أن اللغة سماعية يأخذها الآخر عن الأول لهذا يجعل ابن خلدون السمع أبا الملكات اللسانية لأهميته في إدراك قيمة الصوت ووقعه، كون الأصوات تصدر أولا عن الإنسان فتنتقل عن طريق الهواء الخارجي على شكل موجات حتى تصل إلى الأذن، ومنها إلى الدماغ وهناك تترجم وتفسر؛ فالسمع هو الحاسة الطبيعية التي لا بد منها لإدراك تلك الأصوات، ولأجل هذا وجدنا أن من ينشأ أصما ينشأ أبكما والعكس غير صحيح، فقد سبق السمع في نموه ونشأته نمو النطق والكلام لأنه أعمّ نفعاً من إشارة أو بصر، " فالنبوغ كثير بين المكفوفين ونادر بين الصم، وإن كانوا مبصرين، فالسمع أصل في الفهم والإفهام التي هي عماد كل نمو عقلي، وأساس كل ثقافة، وليست الكتابة إلا وسيلة ناقصة لتصوير اللغات، فيها من الرمز ما لا حاجة إليه كما ينقصها كثير من الرموز حتى يمكن أن يكون تصويرها للغة تصويرا صحيحا، ثم هي مع هذا حديثة النشأة إذا قيست بنشأة النطق الإنسان ولا تزال تلك الرموز الكتابية بمثابة الجسد الحامد حتى يبعث النطق فيه الحياة" ³، لذلك أحل ابن خلدون التعبير المنطقي المسموع المرتبة الأولى من البيان وبعدها التعبير بالخط والكتابة لأن اللغة عنده تقرررت فعلا لسانيا قائما على مبدأ التركيب بتقطيع الحروف، وتمايز أصواتها بما يهيئه نظام اللغة لأمة ما.

¹ - ابن خلدون، لمقدمة، ص 584

² - تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، تنظر ص 585.

³ - زين الكامل الخويسكي، لسانيات من اللسانيات، دار المعرفة، ط5، 1975، ص 40.

وهذا التقطيع هو ما يمنح للغة ما خصوصياتها، إنه تشكيل وتمفصل وهو بحسب جورج مونان¹ صفة تنفرد بهما اللغة وتتميز عن بقية جميع الأنظمة الإبلاغية الأخرى، والأذن أداة السمع معقدة التركيب بين أذن داخلية ووسطى وخارجية، ونحن ندرك الأصوات المختلفة ونتعرف عليها من خلال اتصال الأذن بالمراكز السمعية في المخ، وقد أشار العلماء من الناحية البيولوجية التشريحية إلى أن أجهزة النطق والسمع عند الإنسان قد تربت على أداء وظائفها اللغوية الإنسانية خلال العمل، فقد تمت في جو العمل الاجتماعي مقدرة الإنسان وسيطرته العصبية على جهازه الكلامي كما تم للأذن نضجها، والأذن عضو أساسي في نشأة الكلام واللغة من خلال تلك العملية، فتدربت أعصابها التي تتصل بمراكز الحس في المخ واكتسبت وظيفتها على التمييز بين الأصوات البغيض والمتنافر والمتناغم.²

فوجود اللغة في بناء صوتي كإنجاز طبيعي للصوت المنطوق المسموع، فلأن المظهر الصوتي لها هو المظهر الأساسي والأول الذي تتجسد من خلاله، وقد رأى الجاحظ أن الصوت هو آلة النطق، والجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف، ولا تكون حركات اللسان لفظا ولا كلاما موزونا إلا بظهور الصوت ولا تكون الحروف كلاما إلا بالتقطيع والتأليف، " وعليه يتعين دراسة اللغة كأصوات يتلفظ بها المتكلم ويسمعها المخاطب بين الجانب الصوتي المتمثل في انتشار الألفاظ في الهواء، ووقوعها على حاسة السمع، وبين الجانب العضوي المتمثل في جهاز الإنسان الصوتي، وبين الجانب النفسي الذي يدرس سلسلة العمليات الذهنية معتمدا على علم النفس التجريبي وسيكولوجية اللغة ".³

وطبيعي أن تكون اللغة نظاما علاميا لأن التقطيع يوفر لها مجالات التأليف والتصرف فيها انطلاقا من جهاز النطق والتصويت ذلك أن "طاقة إحداث الحروف تتجاوز ما تستغله منها لغة معينة، وهذا سبب من أسباب اختلاف اللغات وتباينها في الاصطلاحات

¹ - رايح بوحوش، اللسانيات وتطبيقاتها على الخطاب السري، دار العلوم للنشر والتوزيع، 2006، ص 17

² - عبد المنعم تليمة، مقدمة في نظرية الأدب، ط2، دار النهضة العربية، بيروت، 1979، ص 12

³ - حنفي بن عيسى، محاضرات في علم النفس اللغوي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، تنظر ص 31.

فحروف اللغة من قبيل الاصطلاح لا تدل إلا بالقصد كما رأى ابن خلدون، وهي تختلف عن الأصوات غير الدالة من ناحية، والأصوات الدالة بالطبع من ناحية، وفي هذا التمييز (الطبع والقصد) تمييز بين نوعين من العلامات، ما يدل منها بالعادة فيستنتج منه معنى واحد محدوداً لا يدركه على نحو إدراكه الأصوات اللغوية، وما يدل بالاصطلاح فلا علاقة لوقوعه ومعناه، ولا يفيد في حد ذاته، وإنما يفيد بتأليفه مع غيره ليوفر إمكانيات الإفادة والتبليغ ما لا يدخل تحت حصر".¹

فكان المظهر الصوتي أهم مظهر يطبع اللغة من حيث هي فعل لساني ينشأ إرادياً ليبلغ به المتكلم مقصوده إلى المستمع، ويخبر عما في نفسه بتقطيع الأصوات، وهي في كل أمة بحسب ما تواضعت عليه، وهذا الحد للفعل اللغوي عند ابن خلدون نجده متماثلاً مع ما تباه مارتيني، فقد عد اللغة أداة تبليغ يحصل بها على مقياسها لما يخبر به الإنسان على خلاف بين جماعة وأخرى، ينتهي إلى وحدات ذات مضمون معنوي وصوت ملفوظ، وهي العناصر الدالة على معنى Monème، ويتقطع هذا الصوت بدوره إلى وحدات صغيرة ومتعاقبة، وهي العناصر الصوتية Phonème، ويكون عددها محصوراً في كل لسان وتختلف هي أيضاً من حيث ماهيتها والنسب القائمة بينها باختلاف الألسنة. وخلاصة اللغة أنها أداة تبليغ تحقق مبدأ التخاطب الذي يقتضي جهازاً متكوناً من نظام الأدلة والعلامات تقوم مواضع ملحّة ولازمة يتبناها الجسم الاجتماعي للتواصل والتخاطب عن إرادة وقصد بنظام قائم على مبدأ التقطيع والتشكيل عبر وحدات صوتية.

فالفردي الطفل مبرمج لتعلم أية لغة إذا هو نشأ في بيئتها، لأن دماغه قد هبى لذلك بشكل فطري محض قابل لأن يستقبل به أية لغة، فهو "في سنه الصغير يملك نوعاً من الكمبنة اللسانية العلائقية في دماغه كالتى يسميها تشومسكي بالفطرة الغريزية، تلك الكمبنة تساعد على وضع قواعد معينة في ذهنه من خلالها يمكنه أن يولد اللامتاهي من الجمل، وهكذا يمكن أن تستمر هذه المفاعلات التوليدية في دماغ الطفل حتى يستوي عوده ويشتد،

¹ - تنظر : عبد السلام المسدي، نصوص شعرية ولسانية، ص 25 - 26.

وعندها تكمل لغته صوتا وشكلا ودلالة بحيث يصبح قادرا على الاشتقاق والتحويل والحذف¹ ولا يفتن إلى عملية اكتساب تلك اللغة في نحوها التوليدي لأنها قضية معقدة يستخدمها المتكلم في حياته بيسر دون تفكير وكأنها أصبحت لديه عادة كعادة نطق العربية للعرب الأوائل، وقد ظنها البعض فيهم طبعا، وقد وضح ابن خلدون عاها توضيحا يكشف فيه عن فهمه الدقيق لملكة اللغة التي تكون فطرة ثم تكمل اكتسابا، فهي في فطرها معرفة لغوية وكفاية لسانية، وهي في اكتسابها أداء كلامي ينطلق به صاحبه من نظام توليدي رسخ في ذهنه بفعل الممارسة القائمة على السماع والحفظ ثم الاحتذاء ثم الانتقاء والتصرف بمناحي الكلام ما يجري في الذهن من عمليات عقلية مختفية في اللاوعي الذي تربت فيه قواعد اللغة المكتسبة وأصولها.

وذلك ما يجعلنا نفترض جهازا تحتيا للغة يمنحها القدرة على التولد، ويمنح أصحابها المقدرة على التوليد لأننا " ندرك قوانين اللغة الأم منذ طفولتنا على نحو تلقائي، وبطريقة غير واعية ونحن نكتسب معها عن غير وعي أيضا أسلوبا نوعيا متميزا للتفكير كما نكتسب ميتافيزيقية باطنية خفية، ولكل لغة ميتافيزيقيتها، وإن العالم الذي نعيش فيه يعبر عنه الناس بتعبيرات متباينة، فإن اللغة الأم التي تبذر فينا تشرع في تحليل المحيط المعيش وفق طريقة مفروضة علينا لابد من قبولها.²

سادسا: اللغة صناعة من صناعات العمران

اللغة صناعة ترسخ بالعادة والتكرار ترجع إلى منوال رسخ في النفس بعد الممارسة الفعلية لها، تتحول بالتكرار من القوة إلى الفعل؛ تكرر صنفه ابن خلدون في ثلاث مراحل فالأول منه يسمى صفة والثاني حالا، فيتكرر ليصير ملكة، فيقول: " إن الفعل يقع أولا، وتعود للنفس منه صفة، ثم تتكرر فتكون حالا، ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة، ثم يزيد

¹ - مازن الوعر، قضايا أساسية في اللسانيات، ص 338.

² - عبد الجليل مرتاض، في رحاب اللغة، تنظر ص 36

بالتكرار فيكون ملكة¹، فيلتقي مفهوم الملكة بمفهوم الطبع إلا أن الفرق بينهما أن الملكة في قسمها الأول عندما تكون أفعالا تكون شعورية ولا تتكرر إلى صفات تصبح بعد اكتسابها غير شعورية، وقد ظن البعض أن ملكة العربية للعرب لهم بالطبع والجبلة، جبلوا عليها دون جهد أو مشقة، ولكن الحقيقة رسخت فيهم حتى أصبحت لا شعورية عندهم.²

فعلم اللسان ليس هو اللسان نفسه، ومعرفة اللغة علما لا يعني إحكامها عملا فهذه مستغنية عن الأولى جملة، والسمع أبو الملكات لأن الطفل لا يكتسب لغة إلا وهو في وضع اجتماعي ترسخ لديه بالتدرج درية ومرانا لا تلقينا وتعلينا، فتسير إليه كأنها إحدى غرائزه وتستقر أعرافها في نفسه كأنه طبع عليها، أما وقد صار الناشئ في عهود العرب المتأخرة يسمع في العبارة عن المقاصد كصفات مختلطة وحب أن يأخذ اللغة صناعة بالحفظ والانتقاء والاحتذاء.

وجب إذا أن لا يتعلق تعلم اللغة بالمفردات بل إنه متعلق باكتساب نظرة تحليلية قوامها التراكيب تمنح في إطار الاستعمال والتواصل بنى لغوية جديدة يرى الواقع خلالها بطريقة تخالف اللغة الأم، فالمتعلم يتعلم اللغة تركيبا ومنظومة وأساليبيا. فكانت اللغة صناعة شأنها كسائر الصناعات وهذا النظر في تعلم اللغة يتساقق وما قال به تشومسكي في الكفاية والأداء اللغويين.

فقد عرف ابن خلدون اللغة بأنها فعل لسان، ولا بد أن تكون ملكة متقررة³ في العضو الفاعل لها وهو اللسان الذي يكون في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم، فهي - اللغة - عملية تعبيرية تستدعي من المتكلم اطلاعا واسعا بمقاصد الكلام يحكمها فعلا بداية من معرفته بكيفيات تركيب الحروف والأصوات، وقد كانت معاني مرتبة بالقوة في الذهن، ثم تخرج إلى حيز الوجود بفعل اللسان الذي يحولها من إجراء نفسي إلى إجراء لساني فيزيائي، وهذه

¹ - ينظر: ابن خلدون، المقدمة، ص 574.

² - تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، تنظر ص 70-76.

³ - ابن خلدون، المقدمة، ص 565.

العملية ملكة لا تخرج من حيز القوة إلى حيز الوجود إلا إذا تكرر سماع التراكيب اللغوية على الأذن، ورسخت كفياتها في الذهن، ومنها يعتمد المتكلم إلى البناء على منوالها والنسج على أنساقها، والقياس على المثال في اللغة وهذا ما يولد لدى المتكلم كفاية لغوية، وحين يجنح إلى البناء والاحتذاء والقياس فإنه تمكن من الأداء، وهذا ما يلخصه قول ابن خلدون وهو يصف ملكة اللغة صناعة تنشأ على مستوى التراكيب " فالتكلم من العرب حين كانت ملكة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل حيله، وأساليبهم في مخاطباتهم، وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم كما يسمع الصبي استعمال المفردات فيلقفها أولاً ثم يسمع التراكيب بعدها، فليلقفها كذلك ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم، واستعماله يتكرر إلى أن يصير ملكة وصفة راسخة"¹، وهذا السماع والترسيخ هو في حد ذاته ما أطلق عليه الكفاية، وأما الأداء فيمكننا أن نستقرئه عند ابن خلدون في قوله " ثم يتصرف بعد ذلك في التعبير عما في ضميره على حسب عباراتهم، وتأليف كلماتهم، وما وعاه وحفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظهم"² فيروض نفسه على تلك الأساليب المنطبعة في ذهنه ويعبر عن مقصوده قياساً عليه ليدخل مرحلة الإنشاء والإبداع فيما لا يحيد به عن تلك القواعد الضمنية التي تضبط عرف اللغة العام.

فالمملكة اللغوية ملكة مكتسبة ولا أثر للوراثة أو الجنس في ذلك³، وما السليقة اللغوية إلا المران الكافي، " فالمرء يتعلم لغة أبويه، ويربط منذ طفولته بين ألفاظ قومه ودلالاتها ربطاً وثيقاً، فيختزن في ذهنه ذلك الصيد، وبشيء من الترتيب والتنظيم يساعد على أن يدعو بعضها بعضاً عند الحاجة، وتلك الأخيرة تزداد ثراءً بالزمن، وعلى أساس ما اكتسب من ألفاظ يستطيع أن يستنبط مدلول اللفظ الجديد على سمعه، ومع أن الناس يختلفون في

¹ - ابن خلدون، المقدمة، ص 574.

² - المصدر نفسه، ص 575.

³ - ميشال زكرياء، الألسنية الحديثة: مبادئها وأعلامها، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، بيروت، 1980، ص 79 وينظر أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظرية البحث اللغوي الحديث، حسام البهنساوي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1994، ص 23.

تجاربهم مع الألفاظ ودلالاتها، فإنه تكون لهم تلك القدرة على استيحاء الدلالة المجهولة أو طرف منها بلفظ معلوم وذلك لأنهم يشتركون في اختزان الألفاظ، فإذا عرضت تلك اللفظة المرتحلة على جماعة من وسط واحد وثقافة متقاربة رأينا تشابها عجيبا في استنباط دلالتها، وقد يغالي البعض فيتصورون من أجل هذه الظاهرة أن هناك ربطا عجيبا بين الألفاظ ودلالاتها ولا يخطر ببالهم أن القدرة على استيحاء الدلالات مرجعها إلى ما يكتسبه المرء من ألفاظ معينة ومن ربط بين تلك الألفاظ، فالعملية كلها مكتسبة، لا سحر ولا غموض فيها.¹

فاللغة - إذن - مجموعة من الرموز متواترة بين الأفراد الذين يتكلمون بها، وإنها بالاستعمال تتحول إلى نوع من التسليم الضمني لتلك القوانين المنصهرة في بناء اللغة الكلي، ويتعدى مفهوم ملكتها عند ابن خلدون مستوى المفردات إلى مستوى التراكيب والأساليب التي يتلقفها الأفراد بالنشوء في وسط اجتماعي ما، ذلك أن الطفل في منظوره يكتسبها مرورا بثلاث مراحل في نموه: نمو معرفي، نمو لغوي، نمو مجتمعي، فيتعلم الألفاظ قبل أن يضبط لها مفاهيم، فيتلقفها كأنه يتعلم اللفظ دون محتواه الإشاري، ثم يحاول أن يوظفها في سياق مقبول، ومقام مناسب في وسط مجموعة لغوية للتعبير عن أغراضه بصيغ مقبولة، ثم تصير للمتكلم إرادته بالتصرف في رصيده اللغوي والتعبيري متى شاء مراعاة للقوالب الحاصلة في ذهنه، فارتياض المتكلم الكثير على أساليب العرب ومجاري كلامهم، يكتسب بشكل غير محسوس نظام اللغة، وله أن ينتقي منه ما يفي مقصوده، فيولد جملا لم يسمعها قبلا، تكون مقبولة وموافقة للجمل الأصولية في الكفاءة.

وقد ثبت في علم اللغة العام أن اللغة ملك من يتعلمها، وإن هناك فرقا بين الاستعداد للتكلم والتكلم نفسه، فالأول ضروري للإنسان كغيره من ضرورات الاجتماع والتواصل، فيطلق عليه خليقة وفطرة، والتكلم هو مران ودرية مستمران لاكتساب اللغة كعادة اجتماعية²، وابن خلدون في هذا السياق قد سبق بحق فهم اللغويين المحدثين فملكة اللغة

¹- إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، المكتبة الأنجلومصرية، ط3، 1972، تنظر ص 75-76-78.

²- محمد الصغير بناني، البلاغة والعمران عند ابن خلدون، ديوان المطبوعات الجامعية، 1996، ص 112-113.

سماح وتكرار، واحتذاء ومحاكاة، وقد أنكر على الدارسين اعتقادهم أن العرب كانت تتطرق العربية بالطبع والفطرة، وهو يفهم الطبع على أنه تكرار الأفعال حتى تصير أحوالا فملكة، وإن كان الرعيل الأول تعلم العربية سماعا، فإن الرعيل المتأخر وجب أن يأخذها تعلمًا وصنعة، وهذا أمر لا يتعلق بالعربية وحدها، بل تختص به اللغات كلها، فصار لزاما على المتأخرين إن راموا تحصيلها أن يأخذوا أنفسهم بالحفظ للكلام الجاري على أساليب العرب من قرآن وحديث وكلام الإسلاميين حتى ينتزل بكثرة محفوظة كمن نشأ بينهم، ثم ينصرف في إنشاءاته حسب ما وعاه من أساليبهم وتأليف عباراتهم. ويبدو أن ابن خلدون يرى أيضا أن ما يمكن أن يوثق سلامة لغته لا يكاد يتجاوز عهد الجاهلية، وصدر من دولة الإسلام، مثله في ذلك مثل علماء اللغة الذين حددوا عصور الاحتجاج في الحضر حتى نهاية القرن 2 هـ، ونهاية القرن 4 هـ في البدو.

ونصح ابن خلدون¹ متعلم العربية أن يستعين بالفكر اللغوي الذي ورد عند الخليل وسيبويه لإكثارهما من النصوص والشواهد غير أن ما ورد عندهما لم يكن إلا في حدود ما أخذاه عن أفواه المتكلمين، واشتغل بعدهما اللغويون على الانتقاء المذهب من ذلك الموروث دون الجديد والمولد، وهذا المختار والمنقّى عكف عليه النحاة يستنبطون له القواعد ويضبطون له أواخر الكلم، واتخذوا عليه القياس شرطا، وتسابق الأسلاف إلى هذا النحو يرعونه حتى أنقلوا عليه العمل، ووهن شأنه واعتلت أبوابه، فاستصعب الناس مسالكه. ففروا منه لأن اللغويين اقتصرُوا على القبائل الستة التي صحت ألسنتها من هجئة العجمة على حد زعمهم، وتناسوا الحضر وأطراف البلاد التي قاربت الأعاجم، فجمدت اللغة وانطوى أهلها على أنفسهم فكيف ذلك والقرآن ذاته فيه من الألفاظ المعربة ما دل على اختلاط العرب بغيرهم قبل ظهور الإسلام، وازداد الأمر تعقيدا هجرة العرب من البوادي إلى الأمصار، وصار لكل مصر لغته، وكثر التعليم واتسعت التأليف، وتمسك كل مصر بلغته، فنشأت المذاهب النحوية، واتسعت فوضاها حتى في المذهب نفسه.

¹- ابن خلدون، المقدمة، ص 580.

وتلك القواعد لا تفي أبداً لملكة اللغة على أصولها ما لم يأخذ صاحبها نفسه احتكاكاً بالمأثور العربي لفظاً وأسلوباً وتركيباً، وهناك من الأمصار ما اقتصر في طرق التعليم على حفظ القرآن وحده فحال بها الأمر دون تحصيلها، وهذا ما عابه ابن خلدون على أهل إفريقيا والمغرب الذين حاولوا ملكة اللغة بحفظ القرآن فعجزوا عن مجاراته والقياس عليه لأنه كلام معجز فقال: " فأما أهل إفريقيا والمغرب فأفادهم الاقتصار على القرآن القصور عن ملكة اللسان جملة، وذلك أن القرآن لا تتشأ عنه في الغالب ملكة فحظه الجمود في العبارات وقلة التصرف في الكلام"¹ وذلك على خلاف أهل الأندلس الذين كانت لهم ملكة العربية لأنهم لم يقتصروا على القرآن وحده بل أضافوا إليه محفوظات النظم والنثر وقوانين العربية.

فابن خلدون يوضح طريقتين لتحصيل العربية: طريقة يعتبر فيها العلم بالقواعد والمعايير الجافة التي تتأى بصاحبها عن بلوغ الملكة، وطريقة يعتبر فيها الوقوف على كلام العرب وشواهد أساليبهم، ومجاري مخاطباتهم بما تتشأ عنه صورة ذهنية للأساليب ترسخ في أذهان أصحابها تمكنهم من النسيج على منوالها حتى يشق صاحبها لنفسه طريقة في الأسلوب، وهي طريقة أثبتت الهيئات التربوية جدواها إذ صارت تلح على ضرورة إحكام المتعلم لموارد القواعد والنحو والبلاغة تعبيراً وأسلوباً بمعزل عن حفظ القواعد والقياسات العلمية فيما يمكن أن نجده صريحاً في نصح: " ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية ومستغنية عنها في التعليم والسبب في ذلك أن صناعة العربية هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة فهو علم بكيفية لا نفس الكيفية فليست نفس الملكة، وإنما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علماً ولا يحكمها عملاً مثل أن يقول بصير بالخياطة غير محكم لملكته في التعبير عن بعض أنواعها: الخياطة أن تدخل الخيط في خرت الإبرة، ثم يتمادى في وصفه إلى آخر العمل ويعطي صورة الحبك والتثبيت وهو إذا طوّل أن يعمل ذلك بيده لا تحكم منه شيئاً، وكذا لو سئل عالم النجارة عن تفصيل الخشب (...) وهكذا العلم بقوانين العربية مع هذه الملكة في نفسها، فإن العلم بقوانين الإعراب إنما هو علم بكيفية العمل وليس

¹ - ابن خلدون، المقدمة، ص 557

هو نفس العمل"¹، كما رأى أن أيسر طرق هذه الملكة " فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة، فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مراميها "². وكما يرى طه حسين أنه ليس المقصود درس النحو والبلاغة درسا نظريا بل الغاية درس الأساليب التي تسعى إلى تدريب الطفل على أن يجيد التعبير عما في نفسه، فاللغة ونحوها في نظر ابن خلدون كما هو في نظر سببتر نوع من فلسفة اللغة ولهذا يجب ألا نعلمها الطفل حتى يبلغ أشده.³

سابعا: اللغة- الكلام

تحدد موضوع اللسانيات عند مؤرخي الدرس الحديث اللساني من خلال المنهج الذي أقامه سوسور وخلصته أن موضوع اللسان يتحدد بالتطرق إلى اللغة بوصفها نظاما نحويا موجودا في كل دماغ، وبأن الكلام ما هو إلا مجرد تأدية فرضية لذلك النظام، وهذا التحديد جعل سوسور يعقد ثنائية تقابلية بين اللغة والكلام، فالكلام عمل وأداء وسلوك، واللغة حدود ذلك العمل ومعايير ذلك الأداء وقواعد ذلك السلوك، فالكلام حركة واللغة نظامها، لذلك كانت دراسة اللغة تتعلق بالجانب النفسي ودراسة الكلام متعلقة بالجانب الفيزيائي بما فيه من تصويت.

واللسان يمثل الجانب الفطري الذي يدل على قدرة خاصة تكتسبها طبيعة الجنس البشري ضمن وقائع لسانية متعددة وغير متجانسة تشمل الجوانب التالية: الفيزيولوجي الذي يشير إلى قدرة الإنسان الطبيعية الفطرية على الكلام سواء في دماغه أو جهاز التصويت، والفيزيائي الذي يتمثل في حركة خروج الصوت من الفم بشكل ذبذبات وانتقاله عبر الهواء إلى أذن السامع، والنفسي⁴ وهو ما يتعلق بالعملية الذهنية والنفسية المسيطرة على الكلام إنتاجا وفهما، وبالإجراء الآلي لإنجاز الكلام، واللغة هي الشكل الإجتماعي الذي يجسد

¹ - المصدر نفسه، ص 580.

² - المصدر نفسه، ص 414

³ - طه حسين، المجموعة الكاملة، مج 8، ص 162.

⁴ - ينظر: الطيب دبه، مبادئ في اللسانيات النبوية، دار القصة للنشر، 2001، ص 71.

اللسان ضمن التواضعات التواصلية لقوم من الأقوام في قانون عام ونموذج صوري يجعلها قابلة للتنظيم والتصنيف على غير اللسان الذي لا يقبل تلك، وأما الكلام فإنه إنجاز فردي لقواعد اللغة النحوية والاجتماعية المستقرة في أدمغة الناطقين بها باللسان الواحد، فهو يخضع لحركتين متمازجتين حركة الصوت الفيزيولوجية الفيزيائية والحركة الذهنية النفسية للمتكلم المعبر عن فكره.

ومن هنا يمكن التمييز بين " ما هو عام وما هو فردي بين لغة الناس ولسان الجماعة وكلام الأفراد، فاللسان نوع واللغة جنس، والكلام شخصي، فمتصور اللغة يجسم القانون، ولسان الجماعة يشكل نظام العرف أما كلام الأفراد فيشخص السلوك، وبتحديد خصائص الكلام نستنبط نظام اللسان وإذا ألمنا به تنقضي نواميس الكلام"¹، وإذا اعتبرنا أن اللغة هي مجموعة رموز موضوعة بإزاء المعاني يعبر بها القوم عن أغراضهم ضمن صلتهم بالمجتمع، فهي مؤسسة اجتماعية، وأما الكلام فهو ما تتركب من مفردات الإفادة المعني كنشاط فردي، وبناءا عليه نشأ علم اللغة الذي يبحث في مفردات اللغة من حيث تاريخها وأوضاعها ودلالاتها بين المستعمل والمهمل، وأليفها وغريبها، وعنه قال ابن خلدون " أنه بيان الموضوعات اللغوية في إثبات معنى كذا للفظ كذا".²

فاللسان هو النظام الموجود في أذهان كل من يتكلمون به، إنه الذاكرة التواصلية وما أختزن فيها من صور الجماعة بأبعادها الصوتية والتركيبية والدالية لذا يصعب درسه، وإنما يقع الدرس على اللغة أو الكلام في عادات الفرد النطقية وآدائه الفردية التي تملئها بيئته وثقافته وعقيدته مما يجعل اللغة والكلام يتغيران ويتبدلان دائما مواكبين فكر الإنسان المتطور على غير اللسان الذي يستقر نمودجه عبر الأزمان، فلسان كل أمة مجموعة من لغات مجتمعاها واللغة تتألف من كلام أفرادها، وقد يطلق بعضهم لفظ اللغة العربية ليراد به اللسان على سبيل التوسع في المعين فقط، " هذا اللسان يعني الرصيد الذي وضعت ممارسته

¹ - عيد السلام المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، ص 27.

² - ابن خلدون، المقدمة، ص 567.

الكلام في ذاكرة الأشخاص الذين ينتمون إلى مجتمع متجانس فهو نظام قواعد مضمرة في أذهان أولئك يسجلونه بكيفية سلبية عكس الكلام الذي يصدر عن إرادة الفرد ويتميز عن اللغة التي تمارس فعاليتها بالقوة بمعزل عن إرادة المتكلمين".¹

فالخروج بالمعنى من حيز القوة إلى حيز الوجود، أو من مجال الصورة الذهنية المحسوسة إلى الإنجاز التنفسي الفيزيولوجي أو إلى الصورة الملموسة ذلك الكلام المؤدي للمعنى متوسلا بالأدوات الصوتية والتركييبية والمعجمية التي يوفرها اللسان كنظام تواصلية تداولية في عملية جارية بين المتكلم والمستمع، وقناة مشتركة ضمن وظائف حددها جاكسون بستة، " وعد الكلام من حيث هو الإنجاز الفعلي للغة في الإطار الشرعي للظاهرة اللسانية فقد أصبحت اللغة كقيلة بإعطاء المرء مقوماته الإنسانية ولورمنا العمق الأنطولوجي لقلنا: إن اللغة هي العامل الجوهرية في إخراج الإنسان من غزله الوجودية وتلطيف حدة انقطاع بتجربته عن أخيه الإنسان فعدت نقطة تقاطع الوقائع المعيشية، والتقاء الفرد بالفرد وليس شيئاً من هذا ممكناً يعتبر الإنجاز الوظيفي للغة ".²

ثامنا: مفهوم الكلام عند ابن خلدون

وجد ابن خلدون أن العرب خرجت إلى مفهوم آخر للكلام غير الحروف والأصوات " وه وما يدور في الخلد " ³ فيما يلتقي به مع ما أثبتته المتكلمون من الكلام الإلهي المنزه " فقد ذكر الرماني أن الكلام موضوع للإبانة عن الأغراض التي في النفس وإذا كان كذلك وجب أن يتخير من اللفظ ما كان أقرب إلى الدلالة عن المراد وأصح في الإبانة عن المعنى " ⁴، حيث كان في الجدل القائم بين الأشاعرة والمعتزلة ما يثبت أن الله متكلم لذاته، وكلامه صفة أزلية تقدمت كعلمه وقدرته، ومن ثمة كان عليهم " أن يعرفوا الكلام تعريفا مخالفاً يبتعد

¹ - أحمد حساني، مباحث في اللسانيات، ديوان المطبوعات الجامعية، ص 39 وينظر سوسور: دروس في الألسنية العامة، ص 25.

² - عبد السلام المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، ص 36

³ - ابن خلدون، المقدمة، ص 402.

⁴ - الباقلائي، إعجاز القرآن، تحقيق: أحمد صقر، دار المعارف، 1963، تنتظر ص 118

عن الأصوات التي هي أغراض لا يتصور وجودها في ذات البارئ، ولذلك لجأ الأشاعرة إلى القول إن الكلام الحقيقي هو المعنى الموجود في النفس، وإن له أمارات تدل عليه، قد تكون قولاً بلسان على حكم أهل ذلك اللسان"¹، وما اصطلاحوا عليه مما جعل لغة لهم، وتارة يكون للكلام أمارات أخرى تدل عليه غير الأصوات والحروف المنطوقة كالخط والإشارة، والرمز، ويبقى الكلام على الإطلاق في حق الخالق والمخلوق إنما هو المعنى القائم في النفس، وبذلك قد رسخ الأشاعرة توحيدهم بين الكلام والمعاني التنفسية خروجاً من مأزق حدوث الكلام الإلهي"².

فيبين أن مفهوم الكلام الذي أورده ابن خلدون مستمد من مفهوم الأشاعرة، كما حده أيضاً في موضع آخر بأنه " العبارة والخطاب " الذي يقوم الإنسان المتكلم بتركيبه في أقوال يعبر بها عن مقصوده لإفادة السامع، وهذا يثبت وجود الكلام أولاً قبل تجليه قولاً في صورة خارجية تؤكد أن المعنى يحتل المرتبة الأولى بعيداً عن أية وسائط ما يشبه المقام أو النسبة التي تحدث عنها الجاحظ، ثم يأتي الكلام الدائر في الخلد، وهو أمر متنازع في إثباته للخالق غير أن ابن خلدون لم ينفه عن الإنسان ويلي ذلك تركيب الحروف مسموعة أو ملفوظة، ثم تتوفر الكتابة التي ترسم للمعاني خطأ، ومن ثم فالترتيب في العملية الكلامية يكون من المعين (النسبة أو المقام) الكلام ← القول ← الكتابة

ليتضح أننا في التعريف الأول للكلام نعرف المعنى ونختص في الثاني بتعريف الكلام بأنه العبارة والخطاب بوظيفة اللغة مزدوجة - تعبيرية وتوصيلية.

ولعل ذلك التساوق الذي يحرص عليه ابن خلدون في ترتيب مراحل الكلام لا يخرج عما وضحه³ الجرجاني الذي أنزل الكلام منزلة المخرج الكوامن للإنسان وطاقاته من حيز

¹ - نصر حامد بوزيد، العلامة في التراث، دراسة استكشافية من كتاب مدخل إلى السيميوطيقا، ص 92-93-112.

² - العلامة في التراث، نصر حامد أبوزيد، ص 112-113.

³ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تقديم: مصطفى شيخ مصطفى وميسر عقاد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 2004، ص83.

القوة إلى حيز الفعل، وبذلك تكون قوى العقل والقريحة والخاطر حبيسة ما لم ينفث فيها الكلام معالم الوجود، فالكلام هذا المعنى وسيط بين وجود الشيء وعدمه وهو عالم صغير ينتظم ويتألف ليعكس انتظام العالم الكبير أو الوجود الجماعي والإنساني عامة، وعلى حد قول ابن رشيق " من كان في الكلام أعلى رتبة كان في الإنسانية أولى".¹

ولذلك كان أحق التعريفات للكلام هو العبارة والخطاب، واعتد به أفضل طرق البيان التي يحقق ما الإنسان إنسانيته مرتبطة بمبدأ التواصل ليضمن بقاءه، وهو تعريف تثبته مباحث اللسانيات اليوم وقد غدت اللغة تمثلاً ذهنياً رسخت في الذهن أعرافه وأوضاعه، والإنجاز الفعلي لتلك اللغة في تأليف صوتي ومعجمي وتركيبى ولغوي هو الكلام، ليكشف عن المعاني النفسية والفكرية للمتكلمين قصد إفادة المخاطبين وفق نظام لغوي مشترك بينهما.

ومن ثمة كانت اللغة كما أبان عنها ابن خلدون أداة تعبيرية يكشف بها المتكلم عما استقر في ضميره كشفاً يتم بفاعلية الألفاظ النطقية، ولما كان الكلام هو العبارة والخطاب فإنه تركيب ينطلق من المعنى المجرد القائم في الذهن ؛ معنى يتصور فكراً ويتحول إلى أصوات مقطعة ومؤلفة، تلك الأصوات مادة اللفظ وذلك التقطيع هو حركات اللسان في تأليف اللفظ ليكون اللفظ مادة القول، وتأليف الألفاظ هو القول نفسه. حيث إن الحروف والكلمات والجمل تعد عناصر تحمل من القابلية ما يجعلها تتصهر وتترابك وفق ما تتحرك به النفس الإنسانية وإدراكها المنطقي للأشياء، وهكذا تنتظم اللغة في شكل بنيوي متراسف تنطلق من التراكيب البسيطة ومن أصغر وحدة متمثلة في الحرف إلى تركيب معقد متمثل في النص.

¹ - ابن رشيق، العمدة، ج 1، تحقيق: عبدالحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، ، 2004 ص 242.

تاسعا: الحرف عند ابن خلدون

قد أدرك ابن خلدون للحرف مفهوما بما¹ لا مثيل له عند علماء اللغة القدامى باستثناء تعريف ابن سينا الذي بدا تأثيره به واضحا بنوع من التصرف، ففي حين تناول ابن سينا من الناحية الفيزيولوجية العصبية بحكم كونه طبيبا، تناول ابن خلدون في إطار فكرته العامة التي سيطرت على تحليله وفق معي التدرج في نشوء الأشياء وارتفاعها، فاللغات متوارثة كما تتوارث العادات والطبائع والألوان البشرية مادامت الأمم تتحرف في أقاليمها وألوانها وأسمائها، وقد عرض ابن خلدون فصلا كاملا في علم السيمياء أو أسرار الحروف الذي أدخله في مزاعم غلاة المتصوفة باعتبار طبائع الحروف سائر في الأسماء وبالتالي فهي سائرة في الأكوان.

فالحرف عند ابن خلدون يتعلق بكيفية تشكل الصوت في تقطيع هذا الصوت " بقرع اللهاة وأطراف اللسان والحنك والحلق والأضراس أو بقرع الشفتين، وتغاير هذا القرع ينتج عنه تغاير في كميّات الأصوات، وتتمايز الحروف في السمع لتتركب منها الكلمات الدالة على ما في الضمائر²، ويختلف نظامها من أمة لأخرى، فإن كان الحرف نتاج تقطيع صوتي في الجهاز النطقي وتمايز سمعي، فهل يعني هذا أن الحرف لو تحول رقنًا باليد وخطا لا يسمى حرفا، فنكتفي فيه بالسمع؟

عاشرا: دور العصبية في سلامة الملكة واستمرارها.

تظل الملكة سليمة ما لم تدخل عليها عوامل تخدش سلامتها كأن تنازع الملكة ملكة أخرى، فإن الملكة المتقدمة هي المتحكمة وإن نازعتها ملكة أخرى لم تجد موضعا تستقر فيه، وبقيت الأولى تدفع ما عداها وهو أمر لا يقتصر على الملكة اللغوية فقط بل على

¹ -محمد الصغير بناني، البلاغة وال عمران، تنظر ص 119 - 120.

² - ابن خلدون، المقدمة، ص 44.

سائر الصناعات، ومثاله في اللغة عند ابن خلدون " أن الأعجمي الذي سبقت له اللغة الفارسية لا يستولي على ملكة العربي، ولا يزال قاصراً فيه ولو تعلمه وعلمه"¹ وهو رأي فنده ابن خلدون من خلال تجربته الذاتية في الشعر مؤكداً أن سلامة الملكة وتفردا دون أن تنازعها ملكة أخرى أدعى إلى إتقان الفن الذي توفرت عليه، وأن صراعاً بين الملكتين قد يصيب الأولى منهما بضعف، فقد شكا إلى ابن الخطيب استصعاب الشعر لديه كلما حاول نظمه، وعلل لنفسه بأن تداخل محفوظة الأصيل من الفن الشعري ومحفوظه من المتون والقوائد العلمية هو الذي جعل نظم الشعر عليه صعباً، " فامتلاً محفوظي من ذلك وخذش الملكة التي استعدت لها بالمحفوظ الجيد من القرآن والحديث وكلام العرب، فعاق القريحة عن بلوغها"² فأنصف نفسه وحاز إعجاب صاحبه به.

ولما امتزج العرب بغيرهم من الأعاجم ضعف شأن ملكة العرب لمنازعتها ملكات الأعاجم اللغوية، فلم تسلم أية ملكة من الخدش، " ولم تزل العرب تتنطق على سجيتها في صدر إسلامها وماضي جاهليتها حتى أظهر الله الإسلام (...) واجتمعت فيه الألسنة المتفرقة، ففشا الفساد في اللغة العربية، واستدان منه في الإعراب الذي هو حليها (...) فعظم الإشفاق من فشو ذلك وغلبته حق دعاهما الحذر من ذهاب لغتهم إلى أن سببوا الأسباب في تقييدها لمن ضاعت عليه وتثقيفها لمن زاغت عنه³ لذلك وجدنا ابن خلدون كثير الإصرار على حفظ الجيد من مآثور العرب العالي الطبقة حتى تسلم ملكة العربية من ذلك الخدش، " فإنه إذا تقدمت ملكة العجمة صار صاحبها مقصراً في اللغة العربية لأن اللغة إذا تقدمت في صناعة بمحل، فقل أن يجيدها صاحبها ملكة في صناعة أخرى، أما إذا كانت ملكة العجمة السابقة لهم تستحكم حين انتقل منها إلى العربية كأصاغر أبناء الأعاجم الذين يرون مع العرب قبل أن تستحكم عجمتهم، فتكون اللغة العربية كأنها السابقة لهم (...)

¹ - ابن خلدون، المقدمة، ص 587.

² - المصدر نفسه، ص 598.

³ - الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص 11.

وربما تكون الممارسة والأب والمران تقضي بصاحبها إلى امتلاك اللغة كما نجده في كثير من علماء العجم إلا أنه نادر بحيث إذا قورن الواحد منهم بنظيره من علماء العرب كان باع العربي أطول وملكته أقوى".¹

لذلك لم تكن القواعد المستتبطة من أهلها كافية لإحكام ملكة اللغة كما يؤكد عليه ابن خلدون حين رأى أن الذوق لا يصح للأعاجم الداخلين في اللسان العربي كالفرس والترک والبربر لقصور حظهم في هذه الملكة، أما إن كان أعجمياً بالنسب فقط وتربى ونشأ بين العرب فإن ذلك يمكنه من بلوغ الملكة، ومثاله من فرسان الكلام من العجم: الزمخشري وسيبويه، من العلماء الذين خدموا العربية من علماء المشرق، وفي مثل هذا السياق ذكر الدكتور عبد الله شريط² أنه لو طرأت على لغة الأديب لغة أخرى فإنه لا يتمكن من أن يبدع بها أدباً كحال تمكن الأديب الجزائريين من الإبداع باللغة الفرنسية وقصور الأديب التونسيين عن ذلك ليدرك أن أبناءنا تعلموا الفرنسية كلغة أولى مفروضة عليهم في المدارس، فأما التونسيون فتعلموا اللاتين معاً، فزاحمت الواحدة الأخرى، وامتنع لذلك وجود إنتاج جديد بأي لغة عند أولئك.

وهكذا وجد ابن خلدون³ أن طالب العلم من المستعربين فارسيًا أو رومياً أو بربرياً إذا طلب العلم بين أهل اللسان العربي جاءه مقصراً عن الغاية والتحصيل، وما أوتي ذلك إلا من قبل اللسان لأن اللسان وعاء الفكر ووسيلته، فمن كانت لديه هذه الوسيلة ناقصة مخدوشة لا يحصل على المادة العلمية بصورة كاملة وصحيحة، فالعجمة إذا سبقت إلى اللسان قعدت بصاحبها عن تحصيل العلوم من أهل اللسان العربي، وأساس هذا الرأي أن مباحث العلوم إنما هي في المعاني الذهنية، واللغات ترجمان عما في الضمائر من هذه المعان، والألفاظ واللغات وسائط وحجب بين الضمائر، وروابط وختام على المعاني فلا بد

¹ - ابن خلدون، المقدمة، ص 565

² - عبد الله شريط، الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون، ص 672.

³ - ابن خلدون، المقدمة، ص 564

لمعرفة هذه المعاني من إجابة ملكة اللغة التي تحملها، هذا إن كان تحصيل العلوم بالمشاهدة في المناظرة والتعليم وممارسة البحث.

واقترح ابن خلدون وسيلة تعليمية ما أحوج الجهات التعليمية إليها، هي تلك وسيلة الجدل والحوار فقال: " وأيسر طرق هذه الملكة فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة، فهو الذي يقرب شأنها، ويحصل مراميها ¹، فإن كان تحصيلها بالخط أضيف إلى ذلك واسطة أخرى هي الكتابة التي تحمل الألفاظ والألفاظ تحمل المعاني، ولو كانت الملكة اللفظية والخلية غير مستحكمة اعتاض - كما عبر على المتعلم أو الباحث اقتناص تلك المعان، فهذا شأن المعاني والخط بالنسبة إلى كل لغة، ولا يدخل في هذا الحكم الأعاجم بالنسب فقط، بل كل من يأخذ العلم بغير لسانه الذي سبق إليه، ومن غير خطه الذي يعرف ملكته فهذا يكون له حجاباً ". ²

وهكذا فقد رصد ابن خلدون ملكة اللسان العربي في مختلف الأمصار العربية منهج تحليلي، وبحث في الأسباب، وكشف عن النتائج تتم عن خبرته بالوقائع الاجتماعية التي تقابلت عليها حال العرب في ملكها ودينها ولغتها ضمن حركية عمرانه بين تزايد أو تناقصه.

حادي عشر: المؤثرات الدينية والسياسية والاجتماعية في اللغة

حين انهارت سلطة العرب في المشرق، وتولى أمور السياسة العجم الداخلين في الملكة، والجاهلين مملكة العربية، عندها أخذت هذه الملكة إلى التقهقر عند العرب أنفسهم، وقد قال ابن خلدون موضحاً العلل: " فأما أهل المشرق لعهد الدولة الأموية والعباسية كان شأنهم شأن أهل الأندلس في تمام هذه الملكة وإجادتها لبعدهم عن الأعاجم ومخالطتهم إلا في القليل، فكان فحول الشعراء والكتاب أوفر لتوفر العرب وأبنائهم بالمشرق كما يدل على ذلك كتاب الأغاني (...) فكانت الملكة فيهم أبلغ مما كانت في الجاهلية (...) فلما صار

¹ - ابن خلدون، المقدمة، ص 414

² - محمد عيد، الملكة اللسانية، ص 80-81.

الأمر للأعاجم والملك في أيديهم، والتغلب لهم في دولة ديلم والسلجوقية وخالطوا أهل الأمصار والحواضر بعدوا عن اللسان العربي وملكته في فني المنظوم والمنثور ¹.

فقد اختلطت الألسنة وصعب تعريب المجتمعات المفتوحة بل وتأثرت بلغتها العرب الفاتحين وابتعدت عن اللسان المضري، وهو ما اعتبره ابن خلدون فسادا أصاب اللسان العربي في تغير أواخره، وبعض وجوهه، وإن بقيت دلالاته فقال لأن أكثر أهل الأمصار في الملة ولو كانوا من أعقاب العرب المالكين إلا أنهم كادوا أن يهلكوا بسبب ترفهم وما استكثروا من الأعاجم الذين كانوا بها، وورثوا أرضهم وديارهم (...). واللغات متوارثة لغة الأعقاب على جيل لغة الآباء، ولما استولى السلاجقة على المشرق والبربر على المغرب كاد اللسان أن يذهب لولا ما حفظ منه لاعتناء المسلمين بالكتاب والسنة، ثم جاء النار المغول الذين لم يكونوا على دين الإسلام فذهب ذلك المحفوظ وزالت الرسوم العربية في خراسان وفارس والهند وبلاد الروم، وحفظت بعض الشيء في مصر والشام لبقاء الدين.

فعوامل الحضارة مهما كانت مادية أو معنوية من نظم وعادات وعلوم فإن العامل الأكبر في التعبير عنها وصيانتها على مدى الأجيال هو اللغة، وتلك النصوص والتحليلات التي بسطها ابن خلدون تثبت الصلة الوثيقة بين الملك والدين وبين اللغة، وكأنهما وجهان لعملة واحدة، فالعمل السياسي في اللغة مادة للملك في الدولة، والدين صورة له، وهذا التلازم في الصورة والمادة للملك يقضي بتلازم آخر بين اللغة والدين حيث يغدو الدين مادة الملك واللغة صورة له ²، ولما كان الدين إنما يستفاد من الشريعة وهي بلسان العرب كما أن النبي عربي، فوجب هجر ما سوى اللسان العربي من الألسن في جميع الممالك واستقراء التاريخ يؤكد هذا، إذ " أصبح لسان القائمين بالدولة الإسلامية عربيا وصار استعمال هذا اللسان في شعائر الإسلام، وهجرت الأمم لغاتها وألسنتها، وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك في لغة أمصارهم ومدهم، وصارت الألسنة الأعجمية فيها غريبة ودخيلة.

¹ - ابن خلدون، المقدمة، ص 585

² - تنظر: عبد الله شريط، الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون، ص 360

فإذا أخذنا بمذهب ابن خلدون الذي رأى اللغة والدين معا مواد للملك الإسلامي فإنه لا صار الملك للأعاجم في عصور العرب المتأخرة، وكانوا ضارين في العجمة قاصرين عن الملكة العربية بعيدين في أصولهم عن اللسان المصري، قد صارت العربية غريبة وأجنبية خاصة في الأمصار التي شغلت سياستهم الأعاجم، فلما قضي على النظام العربي تضععت أحوال السلطة الدينية بتضعع العربية الوسيلة إلى فهم الشريعة، ولا أظهر من هذا التلازم فيما نراه اليوم من تمزقات فكرية ولغوية ودينية وسياسية يحيها المجتمع العربي والإسلامي عامة الذين غيب دينهم، فتزعزت لغتهم الرابط الذي يجمع أمة العرب، وتدهورت أحوالهم السياسية، وهذه سياسة كل مستعير يروم القضاء على مستعمر، إذ يبحث في كيفية زعزعة مقوماته الشخصية والروحية، فيُغربه عن لغته، فدينه فوحدته، فاللغة تحفظ بالدين والعكس مقبول لأن إثبات النبوة يجعل البشر متعاونين في وجودهم لأن الأحكام الشرعية جاءت كلها مبنية على المحافظة على العمران، فالمهمة الأساسية التي يضطلع عليها الدين واللغة في كونهما يحافظان على العمران بتحقيق التعاون بين البشر، وقد أثبت ابن خلدون¹ أن العرب ما كانوا لينقادوا تحت لواء واحد ويتوحد شملهم إلا بنبوة، وهذه النبوة جاءت معجزة في لغة هؤلاء.

وبعد أن احتل نظام² وسيلة الاتصال الجماهيري وغابت الروابط السياسية والدينية والاجتماعية تعددت لهجات أمصار الأمة العربية وتباينت في المجتمع الواحد، وأدت إلى القطيعة والانفصال عن اللغة المشتركة، ولم يبق شأن لدين أو لغة أو أدب مادام هذا الأدب عاكسا لروح الأمة واللغة حاملة لمظاهر هذا الانعكاس في مختلف صورته وانعكاساته، فلغة الأدب تنمو بمقومات الأمة السياسية والحضارية والاجتماعية، وينحط الأدب وتتمزق اللغة إذا نزلت الأمة عن عظمتها السياسية والحضارية، ولم يعرف العرب الحضارة إلا يوم عرفوا الدين، فلما تفرقت أمصارها وتباينت لهجاها الي إنما تكون بلسان الأمة أو الجيل الغالبين

¹ - ابن خلدون، المقدمة، ص 153.

² - أحمد حساني، مباحث في اللسانيات، ص 21 - ع/ عاطف مذكور: علم الغربيين القديم والحديث، ص 43

عليها أو المختطين لها لما وقع لهذه الأمصار من الغلبة التي صارت للأعاجم وضعفت ملكة الإجابة في المنظوم والمنثور تبعاً لذلك ونزلت عن بلاغة وحالت إلى مرج الفظي وحبلىة تعكس ما صار عليه أهلها من ترف، وإن حفظ من العربية قدر في بعض أمصار العرب فلبقاء الدين فيها كمصر والشام اللذين اشتغل علماءهما على فهم مقاصده ونشر تعاليمه في حلق دروسهم.

فقد وفق ابن خلدون توفيقاً حاسماً عندما بحث البعد الحضاري للغة مبيناً تلازم قوها بقوة أهلها وارتباطها بالأمم التي تتداولها " فغلبة اللغة بغلبة أهلها " وه وما يفسره حاضر العربية المغلوب على أمرها لأن أهلها صاروا إلى المغلوبين، فضاعت اللغة وغاب الدين فتزعزع الملك، وأخذ العمران إلى التقهقر فنحن أمة لم تكن لنا الغلبة يوماً إلا بدعوة ودين.

المبحث الثاني: النحو وصناعة العربية

أولاً: ظروف نشأة علم النحو

وجد علماء اللغة في فساد اللغة وتفشي اللحن فيها مدعاة إلى إنشاء علم النحو ليتوسلوا به إلى فهم القرآن والحديث، فقد ذكر ابن خلدون أنه "لما خشي انغلاق الأذهان عنهما بفقدان اللسان الذي تلا به فاحتيج إلى تدوين أحكامه ووضع مقاييسه واستنباط قوانينه وصار علماً ذا أصول وأبواب ومقدمات ومسائل، وسماه أهله بعلم النحو وصناعة العربية، فأصبح فناً محفوظاً، وعلماً مكتوباً وسلماً إلى فهم كتاب الله وسنة رسوله وأفياً¹، وقد استنبطت تلك القواعد وضبطت القوانين من طرائق العربية ومذاهب العرب في القول كما كانت تجري على اللسان، وقبل أن يدخلها اللحن.

¹ ابن خلدون، المقدمة، ص 576 - ينظر اللغة والنحويين القديم والحديث، عباس حسن، دار المعارف، مصر، 1966، ص 62.

ولذلك أخذ ابن خلدون بالنحو كمفتاح إلى العلوم العربية شأنه شأن علماء الإسلام، وانطلقوا منه إلى تخصصات أخرى كالفقه والشريعة والأدب، ولم تحتج العرب إلى علم في النحو لامتلاكهم العربية، ولبيان الإفهام على مسامعهم، فقد كان ذلك حالهم حتى دخل في ملتهم أجناس أخرى وأخذت بلغة العرب لغة الكتاب الحديد، ولغة الدولة الغالبة، فظهر اللحن وتغيرت حركات إعراب المفردات ووضعت اللغة في غير أوضاعها المألوفة فاحتاج الناس عندها إلى علم لضبط الألسنة، كما قرره ابن خلدون في قوله: " فلما جاء الإسلام وفارق العرب الحجاز الطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول، وخالطوا العجم تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي للمستعربين، والسمع أبو الملكات اللسانية (...)، وخشي أهل العلوم أن تفسد تلك الملكة رأسا فينغلق القرآن والحديث على المفهوم، فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكليات والقواعد يقيسون عليها سائر أنواع الكلام، ويلحقون الأشباه بالأشباه مثل أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب، ثم رأوا تغير الدلالات بتغير حركات هذه الكلمات فاصطلحوا على تسميته إعرابا، وتسمية الموجب لذلك التغير عاملا وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم، فقيدها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو" ¹.

فالنحو من العلوم اللسانية التي ارتبطت بعلوم الشريعة، وفي هذا يرى فريق من المشتغلين ² في هذا المجال أن ذلك الارتباط هو الذي منع علوم اللسان عن التقدم درسا بينما يرى فريق آخر أنه لا أصالة لهذه العلوم إلا في ارتباطها بعلوم الشريعة، والحقيقة أنه كان لعلم النحو دور كبير في فهم بعض مقاصد الرسالة، فقد نصح ابن خلدون بضرورة الأخذ به في درس علوم الشريعة كما دافع عن ذلك الجرحاني قبله حين رأى عدم صحة تفسير بدون علم النحو فقر - مخاصما محتقريه - أن ذلك أشبه بأن يكون صدا عن كتاب الله وعن معرفة معانيه، ذلك لأنهم لا يجدون بدا من أن يعترفوا بالحاجة إليه فيه إذ كان قد

¹- ابن خلدون، المقدمة، ص 566.

²- جبار مختار، البلاغة والأسلوبية، 2003، جامعة وهران، ص 9

علم أن الألفاظ معلقة عن معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، وأن الأغراض
كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها، وأنه المعيار الذي لا يتبين نقصان الكلام ورجحانه
حتى يعرض عليه¹.

وقد سار ابن خلدون في ركابه إذ أحل النحو أهم علوم اللسان منزلة، والأهم أن
يتقدمها " فيه تبيين أصول الإفادة وأصول المقاصد بالدلالة كتمييز الفاعل عن المفعول
والمبتدأ عن الخبر، وقد قدم هذا العلم عن اللغة الذي يعني بالبحث في الألفاظ ومعانيها
وهي لا تزال باقية في معانيها كما اصطلح عليها، وبقيت دلالاتها بخلاف الإعراب الذي
تغير جملة على عهده.

ولما كان النحو ضرورة من ضرورات فهم كتاب الله كان النظر إلى اللغة نظرة
عقيدية جعلت أولئك الواضعين لأصوله يقدسون اللسان المصري الذي نزل به القرآن وقد
فسد بالاختلاط بعد أن تعاقبت الأجناس على بلاد العرب، فكان من الضروري إحيائه وبناء
القواعد الفنية له وعلى أنماطه، ولذلك أصبح على من يريد تعلم اللسان المصري " أن يأخذ
نفسه بحفظ كلام العرب الجاري على أساليب القرآن والحديث وكلام السلف ومخاطبات
العرب في أسجاعهم وأشعارهم وكلام المولدين أيضا في سائر فنوهم حتى ينتزل ذلك من
منزلة من نشأ بينهم ولقن العبارة عنهم، وتحصل لها لمكة بهذا الحفظ والاستعمال وهذا ما
سار عليه سيبويه في كتابه إذ ملأه من أمثال العرب وشواهد عباراتهم حتى تجد العاكف
عليه قد حصل على حفظ من كلام العرب واندرج في محفوظه، فكان الكتاب بذلك أبلغ في
الإفادة² وأما المخالطون لكتب المتأخرين العارية عن ذلك إلا من القوانين النحوية مجردة عن
أقوال العرب وكلامهم فقلما يشعرون لذلك بأمر هذه الملكة أو ينتبهون لشأنها.

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تعليق وشرح: عبد المنعم خفاجي، مكتبة القاهرة، ط1، 1969، ص

² - ابن خلدون، المقدمة، ص570.

ثانياً: التمييز بين منهجين في درس النحو

ل ابن خلدون نظرة عميقة في النحو، فهو لم يقدّم بدراسة أبوابه التقليدية، وإنما أكد على ما يتصل بوظيفته التي يؤديها في فهم التراث العربي وشرح النص القرآن فأفضى به إلى تمييز منهجين في تعليم اللسان العربي إذ وقف من الناحية موقفين مختلفين: أما الأول فموقف: المنوه بجهود بعضهم ممن أدرك وظيفة النحو التي يؤديها في تطويع اللغة والإبانة عن مقاصد الكلام التي تنحو سمت كلام العرب، ففربوا الثقافة العربية إلى المتعلمين بمنهج سليم ومنطق واسع كالذي سجله على كتاب سيوييه، وما قام عليه من الإكثار من الاستشهاد بأساليب العرب، وتخير لكلامهم الحسن والإفادة بتراكيبه البلاغية بدل أن يقتن المسائل النحو، فأحيا اللغة بقواعدها متمثلة في حفظ الجيد من المأثور الذي يراد منه أن يقوم مقام المجتمع وتنزل منزلته، وكادت هذه الصناعة تأفل كسائر الصناعات لا تناقص عمران العرب المسلمين حتى ظهر لنا ابن هشام الذي ألف في النحو كتابا ينم عن اطلاعه الواسع وحسن فهمه لهذه الصناعة.

وأما الثاني: فموقف المنتقد لأولئك الذين تقيّدوا بالحدود المنطقية والقواعد الجامدة ما كانت به صناعة تهتم بالأدوات أكثر مما تتم فيه بتعليم الملكة اللسانية كيفية لا تقعياد، وانغمس النحو في تلك القواعد وصار شأنه كشأن الدين في العهود المتأخرة على يد الفقهاء الذين عبدوا القواعد على حساب المادة الأصلية، وصارت تلك هي هدف الدرس والبحث فعملوا على الإكثار من التصنيف والتلخيصات والاختصارات ودخل التجريد درس اللغة وهو أمر رفضه ابن خلدون بشدة لأن اللغة قبل كل شيء ظاهرة اجتماعية تتوسل بها فئات المجتمع إلى غاياتها التواصلية، ولأنها ابتعدت عن هذا المنحنى إلى التجريد عزلت عن الجمهور وتراكت عليها السنوات دون أن تتفاعل مع الحياة أو تتجدد وازداد الوضع خطورة خاصة " عند أهل المغرب وإفريقيا الذين أجروا الصناعة العربية مجرى العلوم بحثا وقطعوا النظر عن التفقه في تراكيب كلام العرب إلا أن أعربوا شاهدا أو رجحوا مذهباً عن جهة

الإقتضاء الذهني لا من جهة محامل اللسان وتراكيبه وأصبحت صناعة العربية كأنها من جملة قوانين المنطق العقلية أو الجدل وبعدت عن مناحي اللسان وملكته".¹

إن جانبا كبيرا من فساد ملكة اللغة يرجع إلى قصور مدارك النحاة الذين رأوا النحو شكلا إعرابيا به يميز الفصيح عن الهجين من اللغة، فقد احترفوا هذا الباب وأكثروا فيه التأويلات ولذلك نصح ابن خلدون متعلم اللغة بأن " لا يلتفتن إلى خرفشتهم وخلطهم لقصر مداركهم عن التحقيق بزعم أن اللسان العربي فسد اعتبارا ما وقع في أواخر الكلم من فساد الإعراب الذي يتدارسون قوانينه، وهي مقالة دسها التشيع في طباعهم والقصور في أفئدتهم، وإلا فنحن بحد اليوم ألفاظ العرب لم تنزل في موضوعاتها الأولى والتعبير عن المقاصد والتعاون فيه بتفاوت الإبانة موجود في كلامهم لهذا العهد، وأساليب النظم والنثر موجودة في مخاطباتهم وفيهم، الخطيب المصقع في محفلهم ومجامعهم، والذوق الصحيح والطبع السليم شاهدان بذلك، ولم يفقد من أحوال اللسان إلا حركات الإعراب في أواخر الكلم فقط الذي لزم في لسان مضر طريقة واحدة (...) وإنما وقعت العناية بلسان مضر لما فسد لمخالطتهم الأعاجم وصارت ملكته على غير الصورة التي كانت أولا فانقلب لغة أخرى".²

ولما كان النحاة ينزلون هذا اللسان منزلة التقديس، فقد عكفوا على ضبط أواخر كلمه زعما أنهم يصونونه من الفساد الذي أصابه بل وألزموا الناشئة بقواعدهم إن طلبوا ملكة هذا اللسان، فقد صارت علوم اللسان صناعية من الكلام في موضوعات اللغة وأحكام الإعراب والبلاغة في التركيب، فوضعت الدواوين في ذلك بعد أن كانت ملكات العرب لا يرجع فيها إلى نقل ولا كتاب فنتوسي ذلك وصارت تتلقى من كتب أهل اللسان".³

واللغة أعقد من أن تكون مجرد قواعد تصلح ببقائها وتفسد بذهابها، تلك القواعد التي ضمنوها كتبهم وأقاموا عليها حلقات دروسهم وبقيت حبيسة تلك الكتب والتدوين مقابل

¹ - ابن خلدون، المقدمة، ص 580، 581.

² - المصدر نفسه، ص 575.

³ - المصدر نفسه، ص 547.

لغة مجتمعية غريبة، وتمزقت اللغة بين لغة إعراب ولغة دونه أو لغة معربة ولغة تخاطب، وازدادت الهوة بين القواعد في اللغة وتجدها¹ ولم يفتن علماء اللغة إلى هذه الفجوة خاصة عندما اختلطت العربية باللغات الهجينة وظنوا أن حفظ قواعدها سيحفظها من الدخيل، وفقدت حتى عند جيل المتعلمين الذي جعل القواعد لغة بعد أن فقدت عند عامة الجماهير.

ثالثاً: موقف ابن خلدون من النحاة

تتبع ابن خلدون وضع أصول هذا العلم عند العرب بداية عن واضعه أبي الأسود الدولي بإيعاز من الإمام علي - كرم الله وجهه - وما كتب فيه حتى وصل إلى الخليل على عهد هاورن الرشيد عندما اشتدت الحاجة إلى تلك الصناعة فهذبها الخليل وكمل أبوابها سيبويه وأكثر فيها الشواهد والاستدلالات، وضمنها كتابه الكتاب الذي صنف إماما لما بعده ثم جاء أبو علي الفارسي والزجاج فوضعوا فيه الكتب المختصرة للمتعلمين وطال الجدل حول مسائل هذه الصناعة وتباينت طرقها فظهرت مدرستا الكوفة والبصرة وطال الأمر على المتعلمين أيضا فكان الاختصار منحى عند المتأخرين كالتسهيل لابن مالك والمفصل للزمخشي والمقدمة للمفصل لابن الحاجب وجاء من نظم تلك القواعد في أراجيز كما فعل ابن مالك في الأرجوزتين الكبرى والصغرى وابن معطي في الأرجوزة الألفية.

وكثر التآليف في هذا العلم واختلفت الطرق فيها وكادت هذه الصناعة تؤذن بذهاب كسائر الصناعات وقد تناقص عمران العرب المسلمين حتى ظهر جمال الدين الأنصاري بن هشام وكتابه المغني الذي ضبط فيه أبواب النحو ضبطا يعكس فيه علما واسعا ومملكة قوية نوه بهما ابن خلدون².

فعلم النحو وصناعة العربية مصطلحات وردت عند ابن خلدون تعني عنده القوانين " المستتبطة من مجاري الكلام في شبه كليات وقواعد تضبط ملكة اللغة"³ وقد ميز بين علم

¹ -تمام حسان، اللغة العربية ميناها ومعناها، ص 82 عن مباحث في اللسانيات، أحمد حساني، ص 32.

² - تنظر : ابن خلدون، المقدمة، ص 567

³ - المصدر نفسه، ص 566

النحو وبين النحو؛ فالنحو نفس كيفية، والعلم به هو علم بكيفية لأن النحو صناعة من الصنائع وتعلمه يقتضي إحكام الصناعة عملا لا علما فقط، فالفرق بين النحو وعلمه فرق جوهري لم يفرز بينهما إلا مؤخرا في العلوم النسائية بفضل المناهج الحديثة في تعليم اللغات الأجنبية عندما يتعلق الأمر بالبحث عن أيسر المناهج وأنفعها للمتعلم في الممارسة الفعلية للغة التي يراد تلقينها.

قواعد النحو ليست إلا صورة تخضع لها الجماعات "وما القواعد النحوية إلا عصارة الألسنة العربية الفصيحة عبر مئات السنين" ¹، والنحو عمل يقوم به اللسان تلقائيا فتظهر قواعده مطبقة وإن لم يقف صاحبه على أصولها، إنما يأتي ذلك بعد أن يرسخ منواله في ملكته دون تفكير بالقواعد، " فجهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علما بتلك القواعد صناعة لا ملكة إذا سئل في كتابه سطرين إلى أخيه أو ذوي مودته أو شكوى ظلامه أو قصد من مقصوده أخطا الصواب وأكثر من اللحن، ولم يجد تأليف الكلام لذلك والعبارة عن مقصوده فيه على أساليب اللسان العربي" ² وهذه من الحقائق التي لا نخال أحدا ينكرها أو يقف على النقيض منها مثلها في ذلك مثل الكثيرين " ممن يحسن هذه الملكة ويجيد ألفتين من المنظوم والمنثور وهولا يحسن الإعراب (...) ولا شيئا من قوانين صناعة العربية" ³ وهو إلى ذلك يثبت أن ملكة النحو كملكة اللغة لا ترسخ أو تحكم صناعتها بحفظ القواعد وأصولها، وإنما تكتسب عملا وتحكم فعلا بالتمرس على الجيد من الموروث الفني الأدبي، وتأكيدا منه على حصافة رأيه يضرب مثلا يستمد من الصنائع اليدوية تعميما ومن صناعة النسيج ⁴ تحديدا فعنده أن بصيرا بالخياطة غير محكم لملكته فيقول: " الخياطة هي أن تدخل الخيط في خرز الإبرة ثم تغرزها في لففتي الثوب مجتمعتين وتخرجها من الجانب الآخر مقدار كذا ثم يتمادى وصفه إلى آخر العمل، ويعطي صورة الحبك والتثبيت (...)

¹ - نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، ص 329.

² - ابن خلدون، المقدمة، ص 570

³ - المصدر نفسه، ص 575.

⁴ - ينظر: محمد الصغير بناني، البلاغة والعرمان، ص 131

وهو إذا طوّل أن يعمل ذلك بيده لا يحكم منه شيئاً، وكذا لو سئل عالم النجارة (...) وهكذا العلم بقوانين الإعراب مع هذه الملكة في نفسها، فإن العلم بقوانين الإعراب هو علم بكيفية وليس هو نفس العمل¹ فلذلك وجب العودة إلى الأشعار الراقية والأمثال والشواهد الحسنة لمن يبتغي النحو ملكة؛ فيحفظ القوالب اللغوية ويكررها على السمع، فترسخ في الذهن، فيكون قد ارتسم في خياله " المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبيهم فينسج هو عليه ويتنزل بذلك من منزلة من نشأ معهم وخالط عباراتهم في كلامهم².

وقد وقف الدكتور بناني عند هذا الرأي ملا وانتهى فيه إلى أنه يدل على تدقيق منهجي يعبر عن مدى ما وصل إليه التفكير التربوي على يد ابن خلدون، فهو عنده ثم في مرحلتين³: ينطلق أولاً من النصوص بحفظ قوالبها العامة، وفي مرحلة ثانية سخر هذه القوالب المفاصل الحاجات، فيصح المدرسين بأن لا تتم التمارين المدرسية للتلاميذ كما تحري عليه اليوم بتطبيقات نظرية صناعية يطلب منهم حلها بل يجب أن يطلب منهم تحرير سطر أو أكثر في الدرس المطلوب فيتدربوا على النسج على المنوال الذي يهدف الدرس إلى ترسيخه، وتمارس اللغة والنحو بالفعل، فأضحى تعلم النحو أهم من تعلم المفردات منعزلة " لأن الجهل بالأول إخلال بالتفاهم جملة⁴، وليست كذلك اللغة على أننا نريد باللغة الموضوعات اللغوية أو مدلولات الألفاظ المفردات فالنحو هو المعبر عن المقاصد الكلام بالمفردات، والأصل في النظام النحوي أن تتم به الإفادة المرتبطة أساساً بعملية تركيب المفردات وما الإعراب إلا مظهرها من مظاهر هذا النحو.

فقد عد ابن خلدون الكلام عبارة وخطاباً، والخطاب ليس المقصود منه النطق فقط بل أن يفيد به المتكلم سامعه إفادة تامة، فكل كلام حقق دلالاته على ما اصطلاح عليها بين أهلها، وطابقت تلك الدلالة مقتضى الحال تحققت البلاغة في المعنى ولا عبرة فيها بقوانين

¹ - ابن خلدون، المقدمة، ص 579

² - المصدر نفسه، ص 576

³ - محمد الصغير بناني، البلاغة والعرمان، ص 132.

⁴ - ابن خلدون، المقدمة، ص 565.

النحو لأن الدلالة تثبت بالعرف والاصطلاح والبلاغة تصح بالمطابقة بين المقتضيات وبساط الحال لكيفيات الحمل وتأليفها، وكذلك وجدنا ابن خلدون يصنف الأشعار التي خرجت عن خط الإعراب وحققت الإفادة فطابقت فيها أبنية الكلام مقتضى الأحوال قد صنفها من قبيل الشعر العربي الصحيح، ولكن وجد الإعراب في نظام اللسان العربي فهو حكم من أحكامه غير مغل ببيان المقاصد، وإن لم يجر هذا الإعراب فيعتاض عنه بما سماه ابن خلدون " بساط الحال " ¹ وهي الكيفيات والأحوال في تراكيب الألفاظ وتأليفها كالتقديم والتأخير والحذف والذكر وغيرها من القرائن التي تدل على خصوصيات المقاصد.

رابعاً: النحو دعامة في عملية النظم

وابن خلدون إذ يجعل من النحو كل شيء في عملية التخاطب التي تتم على مستوى التراكيب لأجل إفادة المستمع إنما يقدم ² مساهمة عربية في اللسانيات الحديثة لأن تلك الإفادة تتم على بعدين: بعد إفرادي وبعد تركيبية؛ فالمتكلم يحول المفردات من خطها الأفقي الإفرادي إلى خطها العمودي بالربط والضم فالنحو هو معان المتكلم المفرغة وفق قوالب معينة.

ولذلك فهو مرتبط بالتركيب ونشاط الفكر وبنيات النحو تحكي خدمة الفكر ذلك أن المتكلم يختار عناصره الملائمة في طرائق تأليفه، ثم يقوم برصفها والتصرف في رتبها داخل التأليف والنظم ³ فيمر باللفظ إلى المعنى مراعيًا نسقًا معينًا لإعطاء الكلمة رتبها في السياق، والمتكلم لا يدرك العمليات المعقدة التي يقوم بها وهو يمارس الكلام فعلا على ذلك التركيب؛ ذلك أن اللغة تعرض علينا معانيها بطريقة خاصة، هذه الطريقة يمنحها النحو، فنحن نتلقى المعاني مرتبة بالترتيب الذي يقدمه إلينا الكلام في صور لفظية يستخدمها

¹ - ابن خلدون، المقدمة، ص 575

² - محمد الصغير بناني، البلاغة وال عمران، ص 134

³ - محمود السعمران، علم اللغة، دار الفكر العربي، القاهرة، 1962، ص 148

المتكلم في عملياته الذهنية التي يلجأ إليها مما أختزن في ذهنه، تلك العمليات تركيبية بالجمل وعليه¹ فنحن نفكر بالجمل كما قال فندريس.

فعمليات تأليف الكلام تنشأ حروفاً فكللمات فجملًا تتناسق دلالاتها وتتلاقى في معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل حيث ترتب المعاني في النفس ثم تنتظم الألفاظ على حذوها بمراعاة القواعد الصحيحة التي توفرها القدرة الكامنة في أذهان المتكلمين وهل النظم وتأليف الكلام كما قال الجرجاني إلا أن " تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي هجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها وذلك أنا لا نعلم شيئاً يستحسنه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه"².

ولولا النظم الذي يقتضيه علم النحو فيضبطه ويوجه مقاصده لجهلت الإفادة من كل نظم، فالعملية الكلامية يحكمها مستويان: مستوى عميق غير منطوق مشتمل على المعاني ومستوى سطحي منطوق مشتمل على الألفاظ، ويجري التركيب باستبدال المعاني العميقة بالألفاظ وتعليق بعضها على بعض حسب قواعد التركيب، ومطابقتها المقتضى الحال، ولا يحسن نظم إلا هذا التعليق وهذه المطابقة، فما قد يروق من نظم في موضع قد لا يروق في آخر لتغير مقتضى حال النظم من المعاني والأغراض ومن المواقع التي يتراصف فيها اللفظ.

وإذا تمكن المتكلم من تأليف كلامه في ضروب من النظم مختلفة فإنه قد امتلك كفاية لغوية ومعرفة ضمنية بقواعد لغته المكتسبة مما يتيح له إنتاج جمل مقبولة، ولذلك كان مفهوم النحو الأقرب إلى الدقة هو " انتحاء سمت وطريقة أهل اللغة المراد إتقان نحوها واقتفاء أثر أساليبها"³ فإن المتعلم لها فقير إلى وصفها وبنائها على الترتيب الواقع في غرائز أهلها،

¹ - فندريس، اللغة، ص 104.

² - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، طبع المؤسسة الوطنية للفنون الجزائر، 1991 ص 94

³ - أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ص 115

ولو فهمنا أن المتكلم وهو يبني أداءه اللغوية يخضعها إلى الأنماط الدراسية من قواعد لغة أهله ويرتيبها على أصول تلك اللغة لأمكننا اعتبار النحو من وإلا للكفاءة أو النموذج المثالي لأن واقع الحمل بين صحتها أو خطئها تحدده القاعدة اللغوية فالأداء يفصح عن كفاءة المتكلمين، يتبع الكفاءة في نظام قواعدي ويتعلق بالذاكرة السياق الاجتماعي والعلاقات النفسية وهذا الاستخدام للكفاءة اللسانية خلال عملية الكلام " يثبت النحو التوليدي (...) ويبقى النحو يعني التنظيم النسق الكلمات وبنائها ونسجها بكيفية واحدة على مستوى لغة مشتركة بين متكلميها المتواضعين عليها ولذلك جعل تشومسكي النحو من اللغة بمثابة القلب من الجسم " ¹.

فليست اللغة جملة من القواعد الجافة التي تعنى بضبط أواخر الكلم، فالنح ونظمها الذي يكشف عن المعاني ويعطي للألفاظ بعدها الدلالي الذي يتولد عنها تبعاً السياقات ومناسبات مختلفة ولا يتوقف عند شكل إعرابي أو حركات طارئة على أواخر الكلم، فهذه الحركات علم يشترك فيه العارفون باللغة لا تتطلب منهم قوة أوحدة ذهن، والمظهر الشكلي مجرد عن أية قيمة أسلوبية، فكان النحو هو الحس اللغوي المرهف لفروق بين طرائق التركيب ووجوه ترتيب المعاني على المباني وصنعة درك بالفكر لا جملة من المصطلحات حفظ من غير روية، فأنماط النحو تكتسب أداءً في سبل التصرف في التراكيب بما يوافق إرادة المتكلم عن التعبير لا بالقوانين النظرية " ² ولأجل ذلك وجب أن يساير النحو اللغة في تطورها وتجدها.

خامساً: الدعوة إلى العناية بلغة الأمصار

ومما يلفت انتباه الدارس أن ما أورده ابن خلدون من حقائق لغوية حول التشاكل المطرد بين اللغة المضربة وبين ما تفرغ عنها من لهجات كان أن صدر عن رأي مؤداه أن

¹ - عبد الجليل مرتاض، في رحاب اللغة، تنظر ص 171 و 173.

² - التفكير البلاغي عند العرب: أسسه وتطوره إلى القرن السادس، حمادي صمود، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية،

1980 ص 509.

اللغة المصرية لم تتغير في أصولها العامة بل في بعض الجوانب منها كالذي وجدته في نطق (الفاف) في بعض الأمصار بدل القاف فقال في الرد على من زعم أن حرف القاف دخيل على لغة العرب من مخالطتهم العجم فقال: " (...) حيث كانوا من الأقطار هو شأنهم في النطق بالقاف كانوا من غرب وشرق (...) ويظهر ذلك بأن هذه القاف لغة مضر بعينها وهذه اللغة لم يبتدعها أهل هذا الجيل بل هي متوارثة فيهم متعاقبة ويظهر من ذلك أنها لغة مصر الأولين ولعلها - لغة النبي - صلى الله عليه وسلم -¹ فأثبت أن حرف القاف من لغة العرب فهو والقاف حرف واحد يختلفان فقط في اتساع المخرج.

واستمر ذلك التمزق في لغتنا اليوم دون أن تحل أزمته وابتعدت به لغة العرب عن المجتمع مهدها الأول، ولم يستفد منها في ثقافته وتطوره الفكري وتحدد أنماط حياته؛ فإن كان الأمر يتعلق بتغيير أواخر الكلم فيها، فلا ضير - كما قرر ابن خلدون - في ذلك مادامت لغة مبينة عن المقاصد ومؤدية للمعاني، إذن يمكن في نظره تبني تلك اللغة المتحولة عن اللغة المضربة وتفكيدها على أسس جديدة تلائم التطور الاجتماعي للمجتمع العربي مادامت ستدوب فيه بدل أن تتعزل عنه في رفوف المكتبات.

فاللغة بوجودها الاجتماع الإنساني واستعمالها يفضي إلى إنتاج قواعد لها وليست القواعد هي التي تنتج اللغة فمن لم يتعلم اللغة عن المجتمع لن يتعلمها عن غيره، وقد ذكر ابن خلدون مقترحا " لعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان لهذا العهد واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الإعرابية في دلالاتها بأمر أخرى موجودة فيها تكون في أواخره على غير المنهاج الأول في لغة مضر فليست اللغة وملكاتنا مجانا، ولقد كان اللسان المضري مع اللسان الحميري بهذه المثابة، وتغيرت عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميري وتصريف كلماته تشهد بذلك الانتقال على أنها لغة واحدة، ويلتزم إجراء اللغة الحميرية على مقاييس اللغة المصرية وقوانينها (...) وليس ذلك بصحيح ولغة حمير لغة أخرى مغايرة للغة مضر

¹ - ابن خلدون، المقدمة، ص 577

في الكثير من أوضاعها وتصريفها وحركات إعرابها كما هي لغة العرب لعهدنا مع لغة مضر".¹

فقد اعتبرت اللغة أهم مظهر من مظاهر السلوك البشري بل هي من أعجب المبتكرات التي أظهرها التطور البشري كما يرى اللغويون المحدثون فوجب الوقوف عندها وإطالة الوقوف لنرى الدور الذي تؤديه في المجتمع بما يبرز صلات الفرد بالجماعة المنتجين لهذه الأداة، وعلى كل أمة أن تصف جهازها اللغوي لتدرك منزلة التفكير لديها "وعليه فليس السبيل الأنجع إلى ذلك هو دراسة اللغات في نحوها وصرفها وبلاغتها وغيرها من الدراسات التي توفرت عند القدامى ورسموا لها الحدود والقواعد القارة، فجنحت اللغة إلى الجمود وسلموا أنها ذات سمات أبدية لا تقبل التبديل وإن كنا لا نستطيع إنكار فضل أولئك، لكن تلك الدراسات لم تمنع من انقسام اللغة الواحدة إلى لهجات كما حدث مع اللغتين اللاتينية والعربية، كما لم تستطع المدارس المتعددة من بصرية وكوفية من أن تمنع انتشار اللحن في اللغة الأم، ولهذا وجب تغيير منهج الدراسة مسايرة للطرق العلمية الحديثة بأن تنظر إلى اللغة على أنها نظام اجتماعي قبل كل شيء تتأثر بالمجتمع وتؤثر فيه، والنظر في علاقات اللغة بالعقل البشري على أسس علمية كما نقف على بعض حيثياتها عند ابن خلدون وبالتالي نطمئن إلى أن العربية ستظل بقواعدها ومفرداتها وأدبها لغة حديثة تسير كل نهضة علمية أو أدبية أو فنية " ²

فلو صار الأمر إلى استنباط قواعد لكل الألسنة المتداولة في الأمة الواحدة الحمل ذلك على اكتظاظ الدراسات، وتكثيف المعايير، وكثرة التعريفات والتقسيمات فتولد لنا أنحاء بدل نحو واحد مما يزيد الأمر تعقيدا، " وقد قامت في أوروبا دراسات على كثير من إلغائها على عينة كبيرة من كلام الناس فكادت المفاهيم والتسميات القديمة أن تخنفي لتستبدل بمفاهيم أخرى جديدة نابعة من علاقات المفردات داخل الحملة بغض النظر عن اللغة

¹ - ابن خلدون، المقدمة، ص 576

² - فندريس، اللغة، ينظر المقدمة أ

المكتوبة المستعملة في الأدب ولم يعد هناك معايير للصواب. والخطأ مفروض على أفراد المجتمع بل أصبح كل ما يقوله أفراده يعتبر لغة سجل في كتاب القواعد، ولم يبعدوا إلا كلام السوق وأولئك الذين يتكلمون لهجات محلية، وهذا كله راجع لتأثر علماء اللغة بالنزعة السلوكية في اللغة على أنها مجموعة من العادات كغيرها من العادات السلوكية، ولكنهم أغفلوا المعني باعتبار أنه ليس مظهرا خارجيا يمكن النظر فيه بالمنهج العلمي فجردوا اللغة من أهم مظهر لها، وتركز الاهتمام على اللغة المنطوقة".¹

فأمر اللغات المتحولة مشكلة لا تمس اللغة العربية فقط بل تمس اللغات كلها ولاسيما لغة الأدب المكتوب؛ هذا الأدب الذي غاب في مجتمعات اليوم كما غابت كثير من القيم الروحية والاجتماعية ليبقى إشكال عربيتنا مطروحا، فما مصير لغة مضر التي نزل بها القرآن؟، وهل يمكن تطبيق اقتراح ابن خلدون ميدانيا؟، أو نحذو حذو الدراسات الأوربية واللغة عندنا مرتبطة بالمقدس؟ وكيف السبيل إلى تقعيد لغة مجتمعاتنا بل لهجات المجتمع الواحد، ولوتم الأمر فإن المجتمعات ستصير إلى انقسامات أخرى وقد تفرعت هجاها فيتمسك كل مصر بلهجته، ونصير إلى لغة أصلية ولغة مجتمعات وعاميات متفرقة، ولو تعلق الأمر بلغة العامة لهان، ولكن المشكلة تكمن في لغة العلم والأدب خاصة والإبداع الذي لا يزال الكثير من أصحابه يتساءلون عن هوية الكتابة فيه، فهل يكتبون لأنفسهم بلغة مضر؟، أم إنهم مضطرون لأن ينزلوا إلى العامة أم إن العامة تضطر إلى أن ترتقي إليهم.

وعلى غرار التطورات العنيفة التي هز مجتمعنا العربي وإقرارا بأن ما خلق في الطبيعة يحكمه مبدأ التطور، فإن اللغة بناء على ذلك ما كان لها، ولا ينبغي أن تكون بدعا بين مختلف الظواهر الاجتماعية، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى، ويكفي أن نشير إلى اللغة السنسكريتية وما تحذر من أرومتها، والسامية وتفرعاتها، واللغة الحميرية تفرعت عنها اللغة المصرية وتحولت هي الأخرى بعد انتشار الإسلام إلى ما صارت عليه عصر ابن خلدون وقبله وبعده، ومن ثمة فإن ما يهم في اللغة هو تأديتها للمقصود ولا يهم منها

¹ - ينظر: نايف الخرماء، أضواء على دراسات لغوية، ص 108.

قواعدها، "ومع أن لغة الأمصار صارت لغة أخرى قائمة بذاتها بعيدة عن لغة مضر، ثم هي إلى تلك تختلف باختلاف الأمصار، وباختلاف اصطلاحاتهم، فلغة أهل المشرق مباينة بعض الشيء للغة أهل المغرب، وكذلك أهل الأندلس معها، وكل منهم متوصل إلى تأدية مقصوده والإبانة عما في نفسه، وهذا معنى اللسان واللغة"¹.

إنه أمر طبيعي تفرضه عجلة التاريخ ولا يجدر بنا أن نظل متمسكين بلغة مضر وقواعدها، وكيف لا نرضى بهذه اللغة المتحولة عن المضربية فتبين لها أصولا جديدة وقواعد تناسبها فنطوعها وواقعنا المعيش فتصلح لغة للتخاطب والعلم في الوقت نفسه فحتى الاستعمالات التي نسبت إلى عهود العرب الأولى إلى هذيل أو عقيل أو أسد" لم تكن إلا من قبيل التطور الحاصل في العربية ثم نسبت اعتباطا لفئة معينة من الناس وما من اللغات العامية أو ما نسميه باللغات العربية الحديثة إلا نتيجة لهذا التطور في العربية الفصحى"²، فالتطور الخارجي تطور بطيء يصيب اللغة من حيث أسلوبها أو دلالاتها المعنوية، وهو تطور لا تقطن إليه الأجيال المتعاقبة، و"لا يشعر بذلك التغير والتبدل وللنظم والعقائد والتقاليد والعادات أثر في ذلك كما للمستوى الثقافي والبيئة أثر في ذلك وتسري سنة التطور عبر الأجيال حتى تحولها إلى لهجات محلية"³.

فكلما اختلط أبناء الأمة بغيرهم من الأقوام أخذت لغة أولئك تبتعد عن أصولها كنتيجة حتمية تفرضها ظاهرة التطور اللغوي، وهذا واقع له جذوره في عصور العربية الأولى، وليس وقفا على عهد ابن خلدون على نحو ما أصاب لغة العرب في الأندلس وقد اختلط هؤلاء بالإسبان " وظهر نشئ جديد وجدت له لغة عامية بحكم صعوبة الإعراب

¹ - ابن خلدون، المقدمة، ص 578

² - الفصحى: تجوزا لأن الفصيحة قد ضمت ألفاظا من اللهجات المحلية من الجاهلية الأولى حتى العهود الإسلامية

³ - إبراهيم السمراي، التطور اللغوي والتاريخي، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط3، 1983، ص28.

وتأثير البيئة في الألسنة والحناجر، ويروى أن أبا علي الشلوبيني وهو نحوي كبير، طبقت شهرته الآفاق كان لحنانا ولا يكاد يبين ¹ .

ويبدو ذلك التحول واضحا في لغة قريش إذ بحكم موقع قبيلة قريش ونشاطها التجاري أصبحت وعاء لجملة من اللهجات وكلها فرع عن أصل واحد؛ فاللغة كائن حي يعتريها ما يعتري الكائنات الحية من تبدل قد يقل شأنه أو يعظم وفق عوامل يفرضها انتقال الأمة من الوجود الطبيعي إلى الوجود المعقلن، فما دام الناس يتحدثون اللغة على الفطرة " فإن اللغة تبقى هي الأخرى على سجيتها فلا يحدها حاجز، فإذا أدركوا من الحضارة ما به تنشأ لديهم العلوم والصنائع ظهرت المؤسسات المعرفية وانبثقت بينها مؤسسة النحو من حيث هو العلم الذي يقضي على الأزمة فيظهر المعيار بعد أن كان نواميس خفية تتحكم في اللغة فيذعن لها المستعملون لها دون وعي منهم بها فوظيفة النحو هي الخروج من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل أي تحويله من وضع الكمون إلى وضع التحقق والاستعمال تابع للمعيار. " ²

وهكذا كان حال النحو عند العرب الذين كانت لهم الملكة لا تحتاج كتباً ولا تدويناً، أما وقد جاء الإسلام واعتنقته أمم أعجمية، وتغير حال الملكة، وتبدلت كفايات اللسان، وتوسع العرب عمراناً وأدركوا من الحضارة شأناً فكثرت علومهم وتعددت صناعاتهم، فكان لا بد أن يظهر النحو لعقلنة أبنية اللغة الداخلية ولكنه كان تحوا بعيداً عن الكشف العلمي للظاهرة اللغوية بل كان امتثالا لاقتضاءات خارجة عن اللغة دعت إلى التحكم في نزوعها الطبيعي نحو التغير والتبدل، وقام النحو كابحاً لجماح اللغة في تفاعلها، وناموس الزمن الطبيعي، ولم يقف منظماً لها، وهذا بسبب تعصب من ظنوا أنفسهم حاملي لواء العربية فبسطوا قوانينهم وأولوا وتأولوا القواعد مبنية على اللغة المكتوبة وخاصة لغة كبار الأدباء، ولم يولوا اهتماماً للغة المنطوقة المستخدمة، والتي اعتبرت مسخاً للغة الفصحى، وكانت

¹ - أحمد أمين، ظهر الإسلام، ج3، ص 16.

² - عبد السلام المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، ص 38.

معاييرهم المستتبطة تفرض على الناس المستخدمين اللغة بالفعل وليست نابعة من الاستعمال الفعلي، وهذا بالضبط ما كشف عنه ابن خلدون في نصوص حين ذكر مستدركا، " (...) إلا أن العناية بلسان مضر من أجل الشريعة حمل على استنباط القواعد النحوية في لغة مضر وليس عندنا لهذا العهد ما يحملنا على مثل ذلك ويدعونا إليه"¹، وهو الأمر الذي جعل الأستاذ اليافي يرى أن ابن خلدون قد أدرك وجود عقبة حقيقية في حلق لغة جديدة بعد أن وجد المجتمع مضطربا بين لغة عامته المؤدية لمقاصدها وبين لغة القواعد الراكنة في الكتب وبين لغة الأدباء إلي اكتفت بأن تشق لنفسها طريقة لغة الأوائل بعيدة عن ظروف المجتمع وأذواق أبنائه.²

وقد سار عبد الله شريط³ في ركاب ابن خلدون مقرا موقفه من اللهجات إذ يرى أن استدراك ابن خلدون ذلك كان في محله لأن عناية الأولين بلسان مضر كانت من أجل استنباط القواعد لفهم الشريعة محافظة منهم على صلة المجتمع الإسلامي بدينه، أما وقد توطدت تلك الصلة على عهد ابن خلدون فلا داعي لتلك القواعد.

ومن البديهي أن اللغة المضربة اللغة العربية الفصحى سبت إلى عرب الجاهلية ومثلت حيالهم، ولذلك تفردت بعناية اللغويين والنحاة نظرا لتدوين القرآن والحديث بها، وهما أصل الملة، وتمشي على الناس انغلاق الأفهام، فتوجهوا إلى تدوين أحكامهما بتلك اللغة ووقفوا إزاءها وقفة تمجيد، أما وقد تبدلت الظروف فإن ابن خلدون يدعو إلى الكف عن تمجيد ذلك النموذج في عصره منبها إلى وجود ملكات أخرى قد تخالف اللسان المصري في بعض أحكامه، ولكنها لا تقل شأنًا عنه؛ فهي لغات عربية وملكات تامة لأهلها بقيت ألفاظها ودلالاتها، ولم يفقد منها سوى الإعراب، وكل مصر متوصل بلغته إلى الإفادة بمقصوده وهذا هو جوهر اللغة الوظيفي، فما فائدة الإعراب بعد هذا وفي ذلك رأى ابن خلدون أن مدارك

¹ - ابن خلدون، المقدمة، ص 576

² - عبد الله شريط، الفكر الأخلاقي - ابن خلدون، ص 578

³ - ابن خلدون، المقدمة، ص 584.

النحاة حرشفة وقصورا، فما لساهم بلساننا، ولكل عهد لغته القائمة بذاتها ولها ما يميزها حتى تتفرد بكيفياتها.

وقد أصبح من الوقائع الثابتة أن " كل لغة تتطور في كل لحظة وحسب المرء أن يفحص تفاصيلها ليكشف العمليات المختلفة التي تفضي إلى عدم الفهم آجلا (...). الكل يمكن أن يتغير في اللغة فتظهر وحدات صوتية وكلمات وبناءات جديدة في حين أن هناك وحدات وطرائف تعبير قديمة تفقد ترددها الثابت فتسقط في النسيان، يحدث كل هذا دون أن يكون للمتكلمين إحساس بأن اللغة التي يتكلمونها لن تبقى مطابقة لنفسها كما كانت من ذي قبل".¹

وكذلك رصد لنا ابن خلدون واقع اللغة العربية وظروف تحولها إلى تلك اللهجات رسدا ينم عن عمق خيرته بالواقعات الاجتماعية والسياسية والتي أثرت في عمران العرب البشري وما حلفتته من أثر على علومه وصنائه، وما تقدم به ابن خلدون في تلك كان مجرد كشف ورصد وتعليل لواقع لم يكن له يد في صنعه ليدرك أولئك الذين يحملون ابن خلدون وزرا لم يقترفه وظنوا به داعيا إلى تحويل الكتابة نظما أو نثرا من تلك اللغة الراقية إلى اللغة العامية، فهو لم يقل هذا وإنما كان واصفا لحال وإن وجدناه يستحسن الأدبي العامي ويحمد لهجات عهده لما تحقق فيها من البلاغة بإفادة المقصود فإنه لم يجعل لغة النظم والنثر كذلك وهو الذي أثقل المقدمة بنصوص تدعو إلى ضرورة التمسك بجيد مآثور العرب وضرورة احتذاء المتعلم لأساليبهم الراقية فمن لم يجر من الأدباء على أساليب العرب أخرج عن دائرة الشعراء وأعتبر نظمه ساقطا إنها دعوى أولئك الأدعياء الذين رماهم القصور في ملكاتهم، ونادوا بالعامية كتابة إرضاء لأذواق العوام زعما منهم أن الأدب لم يعد يقرأ أو يفهم بتلك اللغة الراقية والأمر أعقد بكثير من هذا التصور.

¹- عبد الله أحمد اسماعيل، أثر الفكر الدارويني في البحث اللغوي، مجلة البصائر، ع 3، 1997، ص 65 عن

Dictionnaire encyclopédique, P 121

المبحث الثالث: علم البيان

أخذ البلاغيون المبحث البلاغي وسيلة للوصول إلى مقاصد الرسالة الدينية والوقوف على أوجه الإعجاز القرآن الذي ارتفعت بلاغته إلى حد الكمال، وألحوا في ذلك على البيان في وظيفته الإفهامية يكشف فيه صاحبه على خلجاته، بل إن ثمرة البلاغة هي في " فهم الإعجاز من القرآن لأن إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع الأحوال منطوقة ومفهومة، وهي أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يختص بالألفاظ في انتقاءها وجودة رصفها وهذا هو الإعجاز الذي تقصر الأفهام عن إدراكه " ¹، فكانت البلاغة من العلوم بالتعلم أولاً " وأولها بالحفظ بعد المعرفة بالله (...). لأن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة لم يقع علمه بإعجاز القرآن (...)" ²، وهي في علميها البيان والمعاني تشكل المعين على ذلك " فمن كان مفتقراً إلى هذين (...). فالويل لمن يتعاطى التفسير وهو فيه راجل " ³، فكان القرآن يحوي من التصرف في اللغة والمعاني اللطيفة والفوائد الغزيرة ما جعله أعلى منازل البيان ⁴، وهذا الإعجاز لا يدركه إلا من كان له ذوق مخالطة اللسان العربي وحصول ملكته، ولهذا كانت مدارك العرب الذين سمعوها كما يرى ابن خلدون أعلى مقاما في ذلك لأنهم فرسان الكلام والذوق عندهم موجود بأوفى ما يكون.

وقد حد ابن خلدون البلاغة بأنها " بلوغ المتكلم الغاية من إفادة مقصوده للسامع " ⁵، فإيراعي التأليف التي يطابق بها كلامه على مقتضى الحال، وهذه المراعاة تكشف عن ملكته الصناعية الناشئة لديه على مستوى التراكيب لا على مستوى المفردات شأنها شأن الملكة النحوية لأنه " إذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال بلغ المتكلم حينئذ الغاية

¹ - ابن خلدون، المقدمة، ص 582

² - أبو هلال العسكري، الصناعتين، تحقيق وضبط: مفيد قمحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1989، ص 15.

³ - أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، مصر، 1937، ص 77.

⁴ - الباقلائي، إعجاز القرآن، ص 35

⁵ - ابن خلدون، المقدمة، ص 574

من الإفادة بمقصوده للسامع، وهذا هو معنى البلاغة " ¹، فمفهوم البلاغة هنا يقربنا من مفهومها عند العسكري، التي ربطها ببلوغ الغاية، والانتهاج إليها، فقال: " سميت البلاغة بلاغة لأنها تنهي المعين إلى قلب السامع فيفهمه " ²، وقال في حدها أيضا " البلاغة كل ما تبلغ به قلب السامع فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن " ³، فكل من أبلغك حاجة نفسه فهو بليغ، فقد كانت كلمة البلاغة تعني قبل القرن 4 هـ المعنى العام للقول الجميل الذي يبلغ به الأديب درجة من الجودة وهي أكثر ما تطلق وصفا. .. وتتناول كذلك حسن التعبير في شتى الصور اللفظية والشكلية باعتبار المتكلم نفسه وهيئته وسلامة منطقته... " وأصبحت عنوانا لمجموع الخصائص الأسلوبية والجمالية الأخرى في البيان التي تدخل ضمنها أبواب البديع باعتبارها تلك الفنون التي لجأ إليها المحدثون ليكسبوا أدهم رونقا " ⁴ فإن كانت البلاغة عند العسكري مرتبطة بالكلام الأدبي فإنها عند ابن خلدون مرتبطة بالكلام عامة.

فالبلاغة التي حضرها ابن خلدون تدور في مفهوم عام متعلق بإفادة المتكلم مقصوده للسامع " شبيهة بالبلاغة التي راح الجاحظ يصفها في البيان مما يجعلها شبيهة باللسانيات الحديثة إذ إنها تهدف إلى دراسة الكلام البشري دراسة علمية، والبلاغة في التعبير الجاحظي ليست في كثير من الأحيان سوى التبليغ والتواصل كما يقول علماء اللسان اليوم... " ⁵، وهي ليست تلك البلاغة التي رسم حدودها علماء هذا الفن بعد أن استقرت كعلم مستقل كما ورد عند السكاكي أو عندما كانت تعد صناعة فنية التلقين قواعد النظم والنثر كالذي شق طريقه العسكري في الصناعتين.

¹ - أبو هلال العسكري الصناعتين، ص 16 و 17، وينظر زهر الآداب، الحصري، ص 99 و 100 و 110

² - الصناعتين، ص 6

³ - المصدر نفسه، ص 10.

⁴ - محمد زغلول سلام، النقد الأدبي عند العرب حتى نهاية القرن 4 هـ، مطبعة أطلس، القاهرة، دار المعارف، 1982،

ص 19.

⁵ -؟ النظرية اللسانية عند الجاحظ، ص 10.

فمتى تحققت العملية التواصلية بين طرفي الخطاب وبلغ المخاطب مقصوده من الفهم والإفهام فهذه هي البلاغة ويكفي من " حظ البلاغة أن لا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع"¹، ولكن هل كل من أبلغنا حاجة نفسه وأفهمنا مقصوده جدير بأن نصنف كلامه من الفن البلاغي، لأنه لو كان الأمر كذلك سيبدو شاملا لكل كلام، ولكن البلاغة اللسانية ليست إفهام المخاطب وحسب فتكون الفصاحة واللكنة والخطأ والصواب والإغلاق والإبانة كلها سواء كما أشار إلى هذا² الجاحظ في تعليقه على قول العتابي الذي استبعد أن يكون كل من أفهمنا حاجته حري بالبلاغة بل لابد أن يجري كلامه على محاري كلام العرب الفصحاء فالمعاشر من المولدين والبلديين ما لم يؤدوا الكلام على سنن العرب الفصحاء جاء كلامهم ملحونا ومعدولا من جهته ومصروفا عن حقه المحكوم له بالبلاغة والفكرة الخلفية لهذا المفهوم في البلاغة تتعلق بالفصاحة النحوية لأن الفصاحة قبل كل شيء حالة وليست فعلا فهي صفة تابعة للغة، وليست للمتكلم بينما البلاغة فعل متعلق بالمتكلم صادر عنه.

أولا: البلاغة بين الطبع والصنعة

البلاغة كسائر الفنون طبيعة موهوبة وعلم مكتسب يمتلكها صاحبها فتكون صفة لكلامه وقد أعد الآلة لها، وأدمن مزاولتها وقد لا يحققها من لم يجد أصلها في فطرته ما يؤتاه من ذهن ثاقب وخيال خصب وأذن موسيقية وعاطفة قوية وما تتفتت به الملكات من علم واسع فالمتكلم إن كان ناقصا العلم قليل الإطلاع" لا يكون في الأخير إلا ساردا للألفاظ ومقطعا لجمل "³، لذلك كان فن البلاغة عند ابن خلدون مرتبطا معرفة الشروط والأحكام

¹ الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة دار التأليف، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1968، ص 63 / 1.

² المرجع نفسه، ج1، ص 21.

³ مصطفى الصاوي الجويني، مدارس البلاغة المعاصرة، دار المعرفة الجامعية، 1995، ص 146 ودفاع عن البلاغة، أحمد حسن الزيات، عالم الكتب، القاهرة، ط2، 1967، ص 30.

التي تتم ها مطابقة الكلام لمقتضى الحال¹، ذلك أن معارف المتكلم البليغ هي منابع إنتاجه " وألوان المعرفة له كألوان التصوير للمصور يجب أن تكون كلها على اللوحة قبل أن يقبض على الريشة والمعارف لا تستفاد إلا بمواصلة الدرس وإدمان القراءة² حتى تقوم الملائمة بين المقام والمقال بحذق في أصول العربية ومعرفة س بل استعمالها ونواميسها " فاللسان لا يكون أجراً ذاهباً في طريقة البيان متصرفاً في الألفاظ إلا بعد أن تكون المعرفة متحللة فيه منقلة له واضعة له في مواضع حقوقه"³.

فالتجربة والمراس الطويل لتدريب الأذن على المقبول من جملة المعاني والصور وشذذ الرواية، كل هذا لإحكام صنعة البلاغة وتوطيد معرفة الشروط والأحكام التي بها تحصل المطابقة بين التراكيب اللفظية ومقتضى الحال التي " أستقرت من لغة العرب وصارت كالقوانين"⁴، غير أن المعرفة لتلك القوانين لا تغني وحدها لامتلاك في البلاغة " فلا تقول إن معرفة قوانين البلاغة كافية في ذلك لأننا نقول قوانين البلاغة إنما هي قواعد علمية وقياسية تفيد جواز استعمال التراكيب على هيئاتها الخاصة بالقياس، وهذه الأساليب التي نحن نقرها ليست من القياس في شيء، إنما هي هيئة ترسخ في النفس"⁵، وهذه الهيئة الراسخة في التنفس هي التي تشكل الذوق الفتي عند المتكلم أو السامع الذي إن سمع بتركيب غير جار على ما عهده من التراكيب في نفسه نبا عنه ومجه.

ذاك ذوق لا تصنعه القوانين العلمية التي استقرها أهلها من عربيتهم لأنها تظل قاصرة عن الإحاطة بأسرار البلاغة، ولا تجدي في حصول ملكتها فالفرق كبير بين الاستدلال بتلك القوانين وبين الأمور الوجدانية الحاصلة بممارسة كلام العرب، ولذلك فرق

¹ - ينظر، ابن خلدون، المقدمة، ص 574

² - مصطفى الصاوي الجويني، مدارس البلاغة المعاصرة، دار المعرفة الجامعية، 1995، ص 146 ودفاع عن البلاغة، أحمد حسن الزيات، عالم الكتب، القاهرة، ط2، 1967، ص 147.

³ - الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الكتاب العربي، بيروت، 1969، ج1، ص177

⁴ - ابن خلدون، المقدمة، ص 590.

⁵ - المصدر نفسه، ص 590

علماء اللغة العرب بين الوضع والهيئة ذلك أن البلاغة لا تحصل بالمعرفة الوضعية أو معرفة الأوضاع على وجه أدق كالفرق بين معاني الحروف، ومختلف الأدوات ووقوع الأسماء على المسميات وبين سياسة التراكيب والأسانيد، وإنما تكون بالهيئات التي لا وضع ولا وجود لها إلا في النص، وصورة الكلام مؤلفاً، ونتاج سبكه وتوزيع وحداته فالعلم بالمواضع لا يولد فناً وشعراً، بل إن العلم خطر عليه، فهذا الباع وابتداع وذلك احتذاء ونسج على المنوال، وبه وجد الناس حلاوة في الاستعارات المبتكرة، فالمرية لا تحب باللغة والعلم بأوضاعها بل تحب بهيئاتها.¹

وتباينت البلاغة في الأمة العربية بين مغرباً ومشرقاً بل في الإقليم نفسه بين بدوه وحضره وهو تباين أرجعه ابن خلدون إلى وجوه تصريف كل إقليم لكلامه في مطابقة بين الحال ومقتضاها لأن تلك المطابقة تتحقق وفق تراكيب مخصوصة حصلت لأهلها طبقاً لحاجتهم النفسية وما يكتنف مجتمعهم من أحوال حتى لكأن المطلع على بلاغة قطر آخر يكاد ينفى عنها لأن ذوق غير ذوق ذلك القطر، لندرك " أن الأنواق كلها في معرفة البلاغة إنما تحصل لمن خالط تلك اللغة وكثر استعماله لها بين أحيائها، لا يشعر الأندلسي ببلاغة التي في شعر أهل المغرب (...) لأن اللسان المضري وتراكيبه مختلفة فيهم وكل واحد منهم مدرك لبلاغته وذائق محاسن الشعر من أهل بلده "2.

وإنما تباينت البلاغة في الأمة العربية بعد أن تبدلت حياة العرب واستحكم أمرهم الأعاجم وغلبوا على سياسة الملك، ولم أنواق هذه الأمة صافية وصارت عن أصل العربية أبعد وتحاف أهلها عن كلام الأولين خاصة ولا سيما في عدوة المغرب التي فسدت فيها طرق التعليم فكان الناشئ فيها قد خدشت ملكته وجاء نظم أدبائها قاصراً عن البلاغة وملئوه بالأسجاع، والزينة يغطون بها قصورهم وانحرفت أساليبهم عن محاري كلام العرب وتداخلت أساليب النظم بأساليب النثر.

¹ - عبد السلام المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، ص 113.

² - ابن خلدون، المقدمة، ص 629.

ثانياً: حصول ملكة البلاغة بتمام ملكة النحو

ولما كان المتكلم يجدد في نفسه أغراضه ووجوه التعلق بين عناصرها احتاج في ذلك إلى معرفة بالنحو ليحقق الفكرة في ذهنه، وينزلها مرتبة في ص ورة لغوية، وإذا لم يحصل له ذلك فسد النظام ولم تتكشف أغراض نفسه، فلا بد من حصول التطابق بين الفكرة في صورها الذهنية وبين الهيئة اللغوية في شكلها المنطوق، ويمكن توضيح إشارة ابن خلدون إلى فكرة الصورة الذهنية في إيراده للمصطلحين¹، إفادة المعنى وكمال المعنى وقد قرر أن إفادة أصل المعنى تكون بصحة اللغة ومعرفة أحكامها وشروطها الي هي حل قوانين العربية في إسناد التراكيب، وما يحيط بهذا الإسناد من معان خارجة ع ن أصله تستفاد من التقديم والتأخير، التعريف والتكثير، وغيرها من أبحاث علم المعان، وكما يستفاد فيها مما ينتقل به الذهن بين المعاني بالدلالات المختلفة كالتشبيه والاستعارة والكناية من أبحاث علم البيان، وهذا كله يحقق كمال الإفادة، وإذا لم يتحقق للكلام إفادة المعنى فهو موات همل لا عبرة به، وإذا لم يتحقق له كمال الإفادة كان مقصراً عن مقتضيات البلاغة، فالبلاغة أصل الكلام العربي وروحه وسجيته ذلك أن " (...) التراكيب بوصفها تفيد الإسناد بين المسندين بشروط وأحكام حل قوانين العربية وأحوال هذه التراكيب (...) وغيرها يفيد الأحكام المكتتفة من خارج الإسناد وبالمتخاطبين حال التخاطب بشروط وأحكام هي قوانين لفن يسمونه علم المعاني من فنون البلاغة فتتدرج قوانين العربية لذلك في قوانين علم النحول لأن إفادتها الإسناد جزء من إفادتها الأحوال المكتتفة بالإسناد وما قصر من هذه التراكيب عن إفادة مقتضى الحال لخلل في قوانين الإعراب أو قوانين المعاني كان قاصراً عن المطابقة لمقتضى الحال ولحق بالمهمل الذي هو في عداد الموات.²

فلا تتم - إذن - الإحاطة بعلم المعاني ما لم تتم الإحاطة بعلم النحو، وقد غدا البعد النحوي في بنية علم المعاني واضح السمات " متميز الأصول وهو ما يجب أن يلتحق

¹ - ينظر : محمد عيد، الملكة اللسانية، ص 64.

² - ابن خلدون، المقدمة، ص 599.

مباحث النحو جزءا متما الموضوعات متداخلة في صلبه¹، ويتبع الإفادة في مطابقة الكلام لمقتضى الحال وقد أضاف ابن خلدون أن " التنفن في انتقال التركيب بين المعاني بأصناف الدلالات لأن التركيب يدل بالوضع على معنى ثم ينتقل الذهن إلى لازمه أو ملزومه أو شبهه فيكون فيها مجازا إما باستعارة أو كناية كما هو مقرر في موضعه، ويحصل للفكر بذلك الانتقال لذة كما يحصل في الإفادة وأشد، لأن في جميعها ظفرا بالمدلول من دليله والظفر من أسباب اللذة كما علمت، ثم لهذه الانتقالات أيضا شروط وأحكام القوانين صيروها صناعة وسموها بالبيان وهي شقيقة لعلم المعاني المفيد لمقتضى الحال لأنها راجعة إلى معاني التراكيب، ومدلولاتها، وقوانين علم المعاني راجعة إلى أحوال التركيب أنفسها من حيث الدلالة، واللفظ والمعنى متلازمان متضايقان كما علمت، فإذا علم المعاني وعلم البيان هما جزءا علم البلاغة، وبهما كمال الإفادة.²

فإن كان علم النحو إمدادا لعلم البلاغة من هذه الجهة فلأن النحو هو مطابقة الكلام لمقتضى المثال، فإن البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ذلك أن النحو نظام قبلي يرسخ في ذهن صاحبه من مجاري كلام الفصحاء يستعان به لإحكام نظام بعدي هو البلاغة من جملة اختيارات ينشئها المتكلم ليفيد بكلامه من طريق علمي المعاني والبيان، فالنحو - إذن - حقيقة قبلية موجودة قبل الكلام في دماغ المتكلمين ليس لهم سوى الخضوع والامتثال لأوضاعه وتتوب من طرفي الخطاب كليهما معرفة بالدلالة الوضعية مفردة ومركبة وهنا تتجلى أهمية النحو في " انه المعبر عن مقاصد المتكلم والقصد من كل كلام الإفادة وهذه مرتبطة أساسا بالتراكيب وهيئاتها التي تتبلور أهميتها في علم المعاني³.

¹ - محمد حسين علي الصغير، الموسوعة الصغيرة: علم المعاني بين الأصل النحوي والموروث البلاغي، دار الشؤون الثقافية العامة، 1979، ص 6.

² - ابن خلدون، المقدمة، ص 599

³ - ينظر: ابن خلدون، المقدمة، ص 566-567

وحين قال ابن خلدون بضرورة معرفة قوانين العربية وأحكامها لحصول البلاغة فإنه قد ساهم¹ مساهمة جديرة بالاهتمام في اللسانيات الحديثة إذ غدا النحو هو المعول عليه في عملية التخاطب وبه تتبين أصول المقاصد ولولاه لجهلت الإفادة التي تؤديها التراكيب وكيفيات الكلام.

والملكة الحاصلة للعرب في النحو من أحسن الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد فهي ملكة هيئ للبلاغة الواقعة في " مطابقة اللفظ للمعنى من جميع وجوهه بخواص تقع للركب في إفادة المقصود الذي يقتضيه الحال والمقام (...) فالمتكلم بلسان العرب وأنماط مخاطبهم ينظم الكلام على ذلك الوجه قدر ما تيسر له، فإن لازم قراءة الطبقة العالية من كلام الأقدمين حصلت له الملكة فيه، وسهل عليه التركيب على أساليبهم حتى لا يكاد ينحو فيه غير منحى البلاغة التي للعرب"²، فإنه قد حصلت له المعرفة بخواص كلامه حين " إذا عرض عليه الكلام حائدا عن أسلوب العرب وبلاغتهم في نظم الكلام أعرض عنه ، وعلم أنه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم، وإنما يعجز عن الاحتجاج به³، والذي يدلّه عليه هو ذوقه الفني الحاصل بتلك الممارسة، وبه يستطيع أن يخلق ضربا من التفاعل والمناسبة بين غايات القول وطرق تأديتها وإبلاغها، فيصبح الحرص على إتقان الوسائل لا يقل شأنًا عن الحرص على تحقيق الإبانة لما يستدعيه امتلاك البلاغة من طبع ودرية، وحسن إبانة وتخير سبك، وفي هذا تمام الآلة وإحكام الصنعة.

لذلك لم يعد الطبع والقريحة يغنيان في اكتساب فن البلاغة وربما كان ذلك في عصر الجاهلية وصدر من الدولة الإسلامية " حين كانت الأهواء صادقة والأخلاق صريحة

¹ - محمد. الصغير بناني، البلاغة وال عمران، ص 133.

² - ابن خلدون، المقدمة، ص 597

³ - المصدر نفسه، ص 597

والحياة بسيطة، أما وقد زيف الصادق وشب الصريح وركب البسيط فلا بد من خلق الصناعة، وهذه القواعد لمعالجتها.¹

وهذه القواعد يستلهمها صاحبها بتعهده على أساليب العرب الفصحاء ولا يتمثلها حفظاً، بل يتمثلها أسلوباً من حيث هو صورة ذهنية منتزعة من أشخاص التراكيب بفعل الممارسة والاحتذاء فيتدرج من ملكة اللغة إلى ملكة النحو، فملكة الأسلوب، فملكة البلاغة التي تكون تمام الملكات وبها كمال الإفادة.

ولم تختص الأمة العربية بالبلاغة من دون الأمم، بل هي ديدن كل أمة في طبع أدبها، وهذه البلاغة ترتقي برقي الأمة وتوع آدابها كما كان الحال في بلاغة الأمة العربية التي ارتقت أذواقها، وذبت مناحي كلامها بمقدم الإسلام واتساع الحضارة وانفتاح العرب على حضارات الأمم الأخرى ودخولهم في التأثير والتأثر، " فكان الأدباء يتهافتون على تنميق الكلم وتهذيب مناحيه وفنونه فيدركون بالتدرج حقائق المعاني التي ربما استعملها آباؤهم وأجدادهم في غير مواضعها بسبب الجيل الناشئ من ضيق العمران وقلة العلوم (...) فأصلحوا من المعاني ما يناسب ألفاظهم وتراكيبهم".²

ومن ثمة وجدنا ابن خلدون يثني على الإسلاميين، فجاءت أعلى طبقة " لأن الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث فولجت في قلوبهم، ونشأت عليها أساليب نفوسهم، فنهضت طباعهم، وارتقت ملكاتهم في البلاغة عن ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية ممن لم يسمع هذه الطبقة، ولا نشأ عليها، فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة، وأصفى رونقا من أولئك، وأرصف مبنى وأعدل تنقيفا بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة".³

¹ - أحمد حسن الزيات، البلاغة بين الطبع والصناعة، مطبعة الرسالة، 1945، ص 16.

² - النقد المعاصر في 4 / 1 من القرن 20، موسى الحسني، محاضرات، مطبعة الجبلوي، 1967، ص 34 -ع/ تاريخ

علم الأدب عند الإفرنج والعرب، روجي خالدي المقدسي، مطبعة الهلال بالفجالة، 1904، ص 36

³ - ابن خلدون، المقدمة، ص 585

وفي هذا التوجه وجد في أشعار حسان والحطيئة وجريير والفرزدق وذو الرقة، وبشار بلاغة ارتفعت عن بلاغة شعراء الجاهلية أمثال النابغة وعترة وعمرو بن كلثوم بما أتيح لأولئك من محفوظ جيد من القرآن والحديث غير أن ناقد¹ شعر حسان وجدوا فيه نظما متفاوتا بين الجاهلية والإسلام؛ فقد استجادوا شعره في الجاهلية ولما دخل الإسلام وقفوا على لين وهوان في شعره لأنه دخله الصدق وولج به باب الخير وما كانت فيه تلك البلاغة التي قال بها ابن خلدون.

لذلك يكون نعت الإسلاميين عند ابن خلدون واجب توجيهه إلى الشعراء المخضرمين الذين انصرف أكثرهم إلى نصره الدعوة المحمدية لأنه لم يكن شعرهم من العالي الطبقة عن طبقة شعر الجاهليين رغم تأثير الإسلام في نفوسهم وعقولهم، فإن الذي تغير عندهم متعلق بالقيم الفكرية والاجتماعية والأخلاقية الجديدة التي لم يعهدها شعراء الجاهلية ليبقى الشعر الجاهلي مقارنة بفترة صدر الإسلام أبلغ في أساليبه وأصدق في تعابيره حكم بساطة الحياة الجاهلية وبعدها عن أسباب الحضارة والتصنع، وإن وجه نعت الإسلاميين إلى الشعراء المقدمين في عهد بني أمية وصدر من العهد العباسي قبل أن تفسد الملكة العربية التي غلبت عليها العجمة في العصور المتأخرة، فإن الذوق فعلا يشهد بارتقاء بلاغة الشعراء وذلك لأن معانيهم اتسعت باتساع الحضارة وانفتحت خبراتهم على خبرات الأمم الجديدة مما فتح لهم باب الخلق والإبداع، إضافة إلى نشاط الحركة النقدية المتطورة التي وجهت الشعراء إلى الرقي، كما أن أهل المراتب وقفوا على تشجيع الشعراء على النظم لأغراض وأسباب مختلفة فراجت سوق الشعر.

ويضاف إلى هذا أن العرب ظلوا متمسكين بتقاليد القصيدة الجاهلية، وقد وقفوا عاجزين عن محاكاة أساليب القرآن والحديث، لذلك رأى ابن خلدون أن الإكتفاء بأسلوب هذين لا يصنع ملكة، وما قد ظهر في أشعار العرب اللاحقة لم يكن إلا خروجاً شكلياً في أحيان كثيرة بوجود بعض المتمردين على تلك التقاليد، إذ لم يستطيعوا التخلص من عمود

¹ -المرزباني أبي عبد الله المرزوقي الموشح، تحقيق: علي محمد الجاوي، نهضة مصر للطباعة والنشر، د.ت ص 76.

الشعر الذي رسخ في أذهان الشعراء والنقاد خاصة وإن كان الشعراء استفادوا من بلاغة القرآن فقد ظهر الأمر في بعض ألفاظه ومعانيه وصوره، لأن بلاغته لا تحتذي ما دام يمثل أعلى مراتب الكمال متجلية في الإحاطة بجميع مقتضيات الأحوال وهو ما لتسعه بلاغة البشر.

ثالثاً: مفهوم البيان

البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك القناع عن المعنى وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله كأننا ما كان ذلك البيان " ومن أي جنس كان الدليل لأن مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعاني فذلك هو البيان في ذلك الموضوع"¹، فالبيان - إذن - هو الإفصاح والظهور وبقدر الإبانة عن المكنون والإحاطة بجوانبه، ووضوح دلالاته يكون جمال هذا البيان، " فعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة وحسن الاختصار ودقة المدخل يكون إظهار المعنى، وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح وكانت الإشارة أبين وأنور كان أنفع وأنجح"².

فمن اقتدر على الكشف عما في نفسه من غير فضول أو حبس فهو لمبين مما يجعل مفهوم البيان أعم وأوسع من أن يقتصر على فن التعبير القولي أو الكتابي، فالمعاني قائمة في الصدور ومتصلة بالخواطر لا يعرف الإنسان حاجة أخيه ولا مكنون ضميره إلا إذا أبان عنها وذكرها.

ومدار الأمر الفهم والإفهام مختلف الوسائل: لفظ أو إشارة أو خط أو عقد أو نصبة وفي هذا المعنى الشامل للبيان تدخل البلاغة التي حصرها أهلها في الأدب الجميل إذ يبحث البيان في أصناف الدلالات وطرق الإبانة وتبحث البلاغة في الأدب خاصة وشاعت محاذاة إلى ذلك فكرة المعاني المطروحة والعبرة بجمال الصياغة لبلوغ الإقناع والإمتاع معاً، " فإذا

¹ - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص76.

² - المصدر نفسه، ص 18.

كان البيان هو الجزء النظري من فن الإقناع فالبلاغة هي جزؤه العملي فهو منهج الطرق، وهي تسلكه، وهو يعين الوسائل، وهي تملكها، وهو يرشد إلى ينبوع وهي تعترف منه¹، ولأن الأمر متوقف على أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك ولطف مداخلك، واقتدارك على نفسك، إلى أن تفهم العامة معاني الخاصة وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلفظ عن الدهماء ولا تحفو عن الأكفاء فأنت البليغ التام².

ذلك البيان كما حدده الجاحظ وهو التعبير على صورة من الصور والقصد منه إبلاغ المعنى المختمر في الذهن للأشخاص، وتطور مدلول هذا اللفظ في القرنين الخامس و6 هـ عند بعض المؤلفين، إذ جرى على مجموعة من الفنون القولية التي تؤكد حسن البيان ثم جاء القرن 7 هـ وأكد السكاكي في المفتاح هذا الاصطلاح وخصه بتلك الألوان التعبيرية وجعله قسما من أقسام البلاغة الثلاثة وصار مدار بحث المركبات³.

ولم يسيطر مبدأ بلاغي على "تفكير بلاغينا كما سيطر على ذلك البيان فهو لديهم جوهر البلاغة والوظيفة الأساسية لكل اتصال لغوي، بل لم يكن البيان موضوع البلاغة وحده وإنما موضوع العلوم العربية والإسلامية من اللغة والنحو والفقه والكلام"⁴، فكان يمثل في هذه العلوم قوة الإفصاح عن المعاني القائمة في الصدور واللغة فيه بريد ما دام المعنى في الفؤاد، وقد جعل اللسان على الفؤاد دليلا.

وما يمكن أن يسجل أن تحديدات البيان لم تفترق عن تحديدات الفصاحة والبلاغة فكانت كلها تجري في معنى الإظهار والإبانة لبلوغ الأفهام، وإن أرجع بعضهم الفصاحة إلى الألفاظ والبلاغة إلى المعاني⁵، ليكون البيان أعم وأشمل لكليهما حتى وجدنا الجرجاني يجمع بين المصطلحات الثلاثة مما يدل على صعوبة ضبطها، فالفصاحة والبلاغة والبراعة

¹ - أحمد حسن الزيات، البلاغة بين الطبع والصناعة، ص 15.

² - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 163.

³ - زغلول سلام، تاريخ النقد العربي إلى القرن 4 هـ تنظر ص 24.

⁴ - جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، دار الغرب للباعة والنشر، القاهرة، ط1، 2000، ص 143

⁵ - أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص7.

والبيان ألفاظ مترادفة عنده وكلها تعبر عن " فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا أو تكلموا وأخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد وراموا أن يعلموهم ما في نفوسهم ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم¹ .

وإنه بالإمكان أن نقدر أن مصطلح البلاغة عند ابن خلدون من حيث كونا إفادة المقصود من الكلام إلى المستمع هو نفسه معين البيان الذي يتعلق بمقدرة المتكلم على الكشف عن ذلك المقصود، وكل كلام تمثل الفهم والإفهام فهو كلام بليغ بشرط أن يجري على أساليب العرب وإلا استوى في ذلك العربي والعجمي، الأديب وغير الأديب فإذا كانت البلاغة طابع كل أمة في أدها وفنون منطقتها فإن كل أمة متوصلة إلى الفهم والإفهام على نحو لغتها، وسمت أساليبها لا تتعدها إلى بلاغة أمة أخرى، ولأجل هذا وجدنا بلاغيينا يلحون على ضروب المطابقة بين المقامات والأحوال والأقوال وهي ضروب لا يتقنها إلا المتمرس على كلام العرب البليغ فشملت البلاغة علوما ثلاثة:

1. علم البيان: وهو ما يحترز به عن التعميد المعنوي.
2. علم المعاني: وهو ما يحترز به عن الخطأ في تأدية المعنى المراد.
3. علم البديع: وهو ما يعقب الكلام من زينة بعد مراعاة تطبيق الكلام على مقتضى الحال.

وقد ورد عن الجرجاني²، " أن الصحة في الكلام هي الخطوة الأولى والخطوة الثانية هي فهم المعاني الثواني القائمة في الكلام، ولا تزال تلك العلوم هي أقسام علم البلاغة إلى اليوم في هجها المدرسي ولعل تركيز بلاغيينا على فكرة المطابقة وضيق فهمهم للحال ما جعل هذا العلم يوصف بالمعيارية"³، إذ انصرف إلى النظر في مراعاة أحوال المخاطبين

¹ - الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 57.

² - بدوي طبانة، البيان العربي، دار العودة، بيروت، ط5، 1972، ص 101 وينظر علم البيان في الدراسة البلاغية علي البديري، مكتبة النهضة المصرية، ط2، 1404هـ، ص 123.

³ - جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، ص 18.

في كثير من الأحيان وما المخاطب إلا طرف في العملية الإبلابية التي تقوم على المبلغ أولاً والرسالة المبلغة، فلا بد من إعادة النظر في مشروع البلاغة القديمة لإعادة صياغتها بشكل دقيق وشامل في ضوء نظرية الإبلاب الأدبي، ونظريات التداول واللسانيات النفسانية والاجتماعية.

رابعاً: علم البيان

وعلم البيان حادث في الملة بعد اللغة وصناعة العربية، وهو من العلوم اللسانية لأنه متعلق بالألفاظ وما تفيده، ويقصد بها الدلالة عليه من المعاني " وذلك أن الأمور التي يقصد بها المتكلم إفادة السامع من كلامه هي إما تصور مفردات سند ويسند إليها، ويفضي بعضها إلى بعض (...) فإن كلامهم واسع ولكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الإعراب والإبانة"¹، وشرح ابن خلدون في هذا الموضوع بعض أوجه الكلام المتصرف فيها ليؤكد أن لكل مقام عند العرب مقالا يحيط به من إسناد خبر وإنشاء فصل ووصل، إيجاز وإطناب، فجنح إلى تقليب الأمثلة بين (زيد جاني) (وجاءني زيد) ما يبين به كيفيات صوغ التراكيب المختلفة لمناسبة الحال، وتلك الأوجه المختلفة للتراكيب كلها زائدة على دلالة الألفاظ من المفرد والمركب، وإنما هي هيئات وأحوال للوقائع جعلت للدلالة عليها أحوال وهيئات في الألفاظ، كل حسب ما يقتضيه مقامه، فاشتمل هذا العلم المسمى بالبيان على البحث عن هذه الدلالة التي للهيئات والأحوال والمقامات وجعل على ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: يبحث فيه عن هذه الهيئات والأحوال التي تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال ويسمى علم البلاغة. الصنف الثاني: يبحث فيه عن الدلالة على اللازم اللفظي وملزومه، وهي الاستعارة والكناية، ويسمى علم البيان.

وألقوا بهما صنفاً آخر وهو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التتميق، إما بسجع يفصله أو تجنيس يشابهه بين ألفاظه أو ترصيع يقطع أوزانه أو تورية عن المعنى

¹ - ابن خلدون، المقدمة، ص 570.

المقصود بإبهام معي أخفي منه الاشتراك اللفظ بينهما أو طباق بالتقابل بين الأضداد وأمثال ذلك ويسمى عندهم علم البديع، وأطلق على الأصناف الثلاثة عند المحدثين اسم البيان، وهو اسم الصنف الثاني لأن الأقدمين أول من تكلموا فيه¹، أمثال الجاحظ وقدامة حتى هبت مسائله على يد السكاكي.

وقد جاء علم البيان حادثاً في الملة لأمر طبيعي، فقد جاءت الدراسات البيانية وقواعدها التي تصنف علماً متأخرة لأن الجانب العقلي أسهم في توجيهها وتنويع مباحثها، ونمو موضوعاتها فجاء لاحقاً لعلم اللغة الذي اختص أهله بجمع أوضاع اللغة صوتاً لها من الفساد، وكذلك علم النحو الذي اختص أهله برسم المنهج السليم الذي ينحو فيه المتكلم سمت كلام العرب فيحترز عن اللحن الذي شاع في فترة من ذلك "ولأن - علم البيان - يحتاج ألواناً من التربة والثقافة فوق ما يحتاج إليه علماً للغة والنحو، لأنهما علمان تقليديان يقومان على استقراء المأثور من كلام العرب وتتبعه واستخلاص ضوابطه احتذاء بسنن العرب في ترتيب الكلمات وفق نظام خاص وما يقتضيه المعنى المراد الإفصاح عنه، ولا شك أن السماع عند العرب هو الأصل في الاحتذاء ثم كان من بعد أساساً للخطأ والصواب"².

أما تذوق البيان فيحتاج إلى مران وإدمان نظر بعد تجربة وارتقاء ذهني في عصور النظر والتفكير ولذلك كان ظهور البيان العربي متأخراً عن علوم اللسان الأخرى، وربما يرجع سبب من أسبابه إلى استفادة هذا العلم من العلوم اللسانية الأخرى، وتأثره ببلاغة الأمم غير العربية، فكأنه " نسيج جمعت خيوطه من البلاغة العربية في المادة واللغة، ومن البلاغة الفارسية في الصورة والهيئة ومن البلاغة اليونانية في وجوه الملائمة بين أجزاء العبارة"³.

¹ - ابن خلدون، المقدمة، 571-572.

² - بدوي طبانة، البيان العربي، ص 15.

³ - طه حسين، من حديث الشعر والنثر، دار المعارف، القاهرة، ط13، 1936، ص 87

ومن الدارسين من يأخذ باعتبار آخر ذلك أن كثيرا من القوانين والمبادئ الي ترتكز عليها نظرية الخطاب عند البلاغيين¹ خاصة المعتزلة كمفهوم المنفعة ومراعاة مقتضى الحال هي مبادئ أجنبية يمكن ردها إلى السوفسطائية وإلى طريقة سقراط في توليد المعاني.

وقد تكون هذه الأسباب مجتمعة سببا في تأخر علم البيان الذي استفاد من العلوم اللسانية وبعض العلوم العقلية كالمنطق، فقد عالج هذا العلم الفن الأدبي استعانة بتلك العلوم، وإنما جعله ابن خلدون علما تاليا العلمي اللغة والنحو لأن جهود علماء العربية انحصرت في علم النحو باعتباره أول فساد لحق باللغة كما توجهوا إلى الموضوعات اللغوية لما أصابها من فساد²، ولأجل هذه الصلة بين العلوم اللسانية فإنه لا تكاد تجد نواحي هذا العلم خاصة وبالمنطق الذي يعصم من الزلل في التفكير ويبحث في الطريقة التي تطابق ما الأفكار والقوانين الضرورية، وهذه العلوم يمتلك المتكلم قوالب أسلوبية الاحتذاء سنن العرب، فلقد أصاب ابن خلدون وعلماء البلاغة العرب حينما أحلوا البيان ذلك المحل من العلوم العربية فإنها جميعا تهدف إلى خدمة البيان الذي ينبغي أن يساير كل نشاط فكري فلا يتخلف عن أية حركة علمية تخدم التراث في العلم أو الفن بعثا أو تحديدا لأثره البعيد في خدمة اللغة إذ هو يشرح محاسنها وصنوف التعبير ما ويفسر ملامحها الجمالية³، وإن كان علم النحو والمنطق علمين مستقلين بذا مما لا يدخلان في صميم البلاغة إلا أنهما يمهدان لها ويسبقاها إلى تحقيق الصحة في العبارة والفكرة، وبعد هذا تتقدم البلاغة لتوفير المناسبة، والمطابقة التي هي وظيفة الفن البلاغي الأصلية.

وقد حد علم البيان عند ابن خلدون بأنه بحث الهيئات والأحوال والمقامات التي تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال، وهو حد لعلم البلاغة وفي هذا الحد خلط في استعمال المصطلحات ذلك أن علم البلاغة شاع في عصره على أنه علم البيان، فكانت البلاغة كأنها

¹ - السيد أحمد خليل، المدخل إلى دراسة البلاغة العربية، دار النهضة العربية، مصر، 1968، ينظر ص 76.

² - بدوي طبانة، البيان العربي، ص 16، وينظر البلاغة العربية: أصولها وامتداداتها، محمد العمري، إفريقيا الشرق، بيروت، لبنان، 1999، ص 194.

³ - المرجع نفسه، ص 12

هي البيان، والذي صنف إلى ثلاث أصناف كما ورد في تعريف ابن خلدون (علم البلاغة، علم البيان، علم البديع) مما أطلق عليها المحدثون اسم البيان، وقد رآه ابن خلدون اسما يختص بالصنف الثاني الذي يبحث في الاستعارة والكناية لأن البلاغيين القدامى صفوه كذلك وهو يجاري في ذلك قدامة والجاحظ حتى غدت البلاغة في أصنافها الثلاثة - كما استخلص زبدها السكاكي - تشمل: باب المعاني والبيان والبديع، وهو تصنيف لا يزال معتمدا في تعريف البلاغة المدرسي¹.

فإن ورد علم البلاغة في تعريف ابن خلدون مرادفا لعلم البيان وورد أخرى على أنه جزء من علم البيان، فإنما كان ذلك على ما يبدو للإشارة إلى الجانب التعبيري المتمثل في البيان والجانب التوصيلي المتمثل في البلاغة، والبلاغة لا تكون في هذه الحالة إلا امتدادا للنحو باعتباره تصرفا في كيفية التراكيب خاصة ما يكون منها موضوع علم المعاني والبلاغة مقتصرة حينئذ على علم المعاني².

ولم يلق علم البيان من عناية المغاربة ما لقيه من عناية المشاركة لأن هؤلاء أقوم من المغاربة في ذلك والسبب في نظر ابن خلدون أن علم البيان كمال في العلوم اللسانية، وتتوافر العلوم اللسانية، حيث يتوافر العمران والمشرق أوفر عمراننا، وأكثر من عيني به علماء المشرق العجم بالنسب، بينما توجه أهل المغرب إلى الاهتمام بأصناف علم البديع " الذي جعلوه من جملة علوم الأدب وأكثروا صنوفه زعما منهم أنهم جمعوها عن لسان العرب وإنما فعلوا ذلك لولوعهم بالزينة اللفظية، وسهولة مأخذها لأن مأخذ البلاغة والبيان أبعد نظرا وأكثر دقة فنابوا عنها لقصور مداركهم فيها"³

¹ - أحمد الشايب، الأسلوب، مكتبة النهضة المصرية، مصر، 1966، ص 29.

² - البلاغة والعمران، محمد الصغير بنائي، ص 138.

³ - ينظر : ابن خلدون، المقدمة، ص 572

وغاية علم البيان هي¹ معرفة إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة بالزيادة أو النقصان في وضوح الدلالة وهي معرفة لا تحصل إلا في الدلالات العقلية بالانتقال من معنى إلى آخر العلاقة بينهما كلزوم أحدهما الآخر بوجه من الوجوه فمرجعه - إذن - اعتبار الملازمات كالانتقال من ملزوم إلى لازم أو العكس، وقد أخرج من علم البيان التشبيه لأن دلالاته وضعية لا يمكن فيها إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة² واختص الانتقال بين الدلالات في الاستعارة والكناية وإن أخذ السكاكي بالتشبيه فقد أخذه أصلاً ثالثاً في أقسام علم البيان وجعله البيان في المجاز (الاستعارة) والكناية غير أنه لم يستطع أن يلغي التشبيه من فنون علم البيان بحكم أنه يعكس فطنة ومقدرة لا يستهان هما فعاد ليقول: "ثم إن المحاز - أعني الاستعارة - من حيث إنها فرع عن التشبيه (...) لا تتحقق بمجرد الانتقال من الملزوم إلى اللازم بل لابد فيها من تقدم تشبيه شيء بذلك الملزوم في لازم له تستدعي تقديم التعرض للتشبيه فلا بد من أن نأخذه أصلاً ثالثاً ونقدمه"³.

ولما اعتمدت الاستعارة على تشبيه كان حقه أن يتقدم عليها فعاد السكاكي وجعله هو الأول في أقسام البيان ولما كانت الاستعارة تتوجه إلى المركب بدل المفرد كان من حقها أن تتقدم على الكناية، فاستوت بذلك علوم البيان محددة في: تشبيه واستعارة وكناية تحديداً ضيقاً، وهو الترتيب نفسه الذي أورده ابن خلدون، حتى الاستعارة إلي جعلها تشبيهاً حذف أحد طرفيه فيدخل المشبه في جنس المشبه به ما نظنه الحد لها كصورة بيانية هو ما عناه حين جعلها عموداً للشعر بعد أن بناه على الكلام البليغ.

فابن خلدون وهوريحد علوم البيان والمعاني والبديع لم يضيف شيئاً إلى ما ذكره سابقوه من دارسي البلاغة، وينبغي عندها أن نفرق بين البيان وعلمه فالبيان كيفية وعلمه علم بالكيفية إذ يغدورالبيان الفن القولي ذاته في كشف الأديب عما في نفسه وفق صياغة

¹-السكاكي، مفتاح العلوم، ص 157.

²- أحمد مطلوب، البلاغة والتطبيق، وزارة التعليم العالي، بغداد، ط1، 1982، ص 266 .

³- السكاكي، مفتاح العلوم، ص 158.

أسلوبية تقوم على علاقات توزع فيها اللغة توزيعاً لطيفاً يراعى فيه ظروف السياق والموقف والمخاطب فتكون اللغة أشد تأثيراً وإمتاعاً لدى المتلقي.

خامساً: علم المعاني

ورد عن بلاغيينا القدامى أن علم المعاني هو مطابقة الكلام لمقتضى الحال ومناسبة المقال للمقام في حين كان علم البيان هو العلم الذي يعرف به إيراد المعنى الواحد بتراكيب مختلفة، وأدائه في صور متعددة، فعلم المعاني هو¹ القانون الذي عرف به المطابقة والمناسبة، وتنتج البلاغة بمراعاة أمرين؛ الأول: الاحتراز من الخطأ في تأدية المعين حتى لا يخرج غير مطابق لمقتضى الحال فتنتفي عنه صفة البلاغة، والثاني: تمييز الكلام الفصيح عن غيره حتى تضمن سلامة العبارة من الخطأ، ولأجل هذا احتيج إلى علمين التحقيق سلامة التراكيب من جهة وملاءمتها لمقتضى الأحوال من جهة أخرى، وهذا العلمان هما: علم البيان وعلم المعاني، وقد يسميان بعلم البلاغة، ولما كان علم البديع به يعرف وجوه تحسين الكلام لجعل تبعاً لهما، فصارت مباحث البلاغة: البيان، المعاني والبديع.²

ويشكك الدكتور أحمد مطلوب بوضوح مصطلح علم المعاني أو البيان عند كل من سبق السكاكي، وهولا يستطيع أن يتبين دقة المصطلحات المتعلقة بالعلمين، فقد عدّه أول من قسم البلاغة إلى معان وبيان وبديع، وأنه أول من أطلق على الموضوعات المتعلقة بالنظم علم المعاني³، فقد عرف السكاكي علم المعاني بأنه "تتبع خواص تركيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحرز بالوقوف عليها من الخطأ في تطبيق الكلام

¹ - محمد حسين علي الصغير، الموسوعة الصغيرة، تنظر ص 16.

² - أحمد الشايب، الأسلوب، ص 19

³ - أحمد مطلوب، البلاغة والتطبيق، ص 83.

على ما يقتضي الحال ذكره " ¹، ونجد القزويني رفض تعريف السكاكي مقترحا تعريفا آخر فيقول: " هو علم عرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال. ²

والذي رسخ في عرف البلاغة أن علم المعاني هو ما يحترز به عن الخطأ في التعبير بالصورة اللفظية عن الأفكار المتصورة في الذهن، أو هو ما تعرف به أحوال اللفظ من حيث مطابقتها لمقتضى الحال في تعبير عن الفكر ما يناسب أحوال المخاطبين واستعداداتهم، والمراد بالحال الأمر الذي يدعو المتكلم إلى إيراد كلامه على نحو خاص بعيدا عن التعقيد المعنوي مما يعيق عن بلوغ المتكلم غايته من الإفهام.

وما يمكننا استفادته من تعريف السكاكي والقزويني هو غاية هذا العلم في مراعاة تطبيق الكلام على مقتضى الحال، فمهمة المعاني عندهما أن يكون لكل مقام مقاله، فلا يكلم العالم بلغة الجاهل، ولا السوقي بلهجة البدوي، ولا وضع الظاهر موضع المضمحل. .. وهو ما يختلط به علم البيان في وجه من الوجوه لأن مقتضيات الحال تحري في التشبيه والاستعارة والكناية والتمثيل كما تجري في قضايا الإسناد وموارد الخبر والإنشاء، وعلم البيان يخرج عن ذلك، والذي يبحث في تأدية المعنى الواحد بصور متباينة ولا يبحث في أحوال اللفظ.

وانحصرت البلاغة في تحقيق معنى المطابقة تلك التي تغذي قوة الإدراك لدى المتلقي بالتصرف في الجملة وعناصرها، ووسيلة ذلك الصورة التي تختصر البيان تشبيها ومجازا، وعلم المعاني الذي يدرس الجملة، أما البديع فقد عدوه ثانويا في صميم البلاغة لأنه طرق في التحسين تلحق الكلام، والكلام متحقق بذاته وما ذاك إلا زائد في بكائه، وإننا نجد أن ما ألفه علماء البلاغة العربية فسموه مرة بيانا وأخرى بديعا، وتارة فصاحة أو بلاغة ما

¹-السكاكي، مفتاح العلوم، ص 77.

²- القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط3، د.ت، ص

يكشف عن تداخل المصطلحات التي لم تبتعد كثيرا في مدلولها لأن الموضوع المعالج فيها واحد وهو الأدب.

ولم يحدد ابن خلدون هذا العلم بمصطلحاته، إذ أورد مفهومه عقب حديثه عن علم البيان، فقال: " (...) ويبقى من الأمور المكتتفة بالواقعات المحتاجة للدلالة أحوال المتخاطبين أو الفاعلين، وما يقتضيه حال الفعل، وهو محتاج للدلالة عليه لأنه من تمام الإفادة، وإذا حصلت للمتكلم فقد بلغ غاية الإفادة من كلامه، فإذا لم يشتمل عليها فليس من جنس كلام العرب، فإن كلامهم واسع ولكل مقام عندهم مقال " ¹، وهو في ذلك ينحو منحى بلاغيي العرب الذين حرصوا على بحث مجالات المطابقة بين الكلام ومقتضى الحال فاشتروا أن " يعرف المتكلم أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما (...) " ²، فبلاغة الكلام مرتبطة بهذه المطابقة التي تنهي المعنى إلى قلب ال امع، والحال هو الأمر الداعي للمتكلم إلى أن يميز كلامه على قدر المعنى، فإنكار المخاطب للمعنى حال يقتضي أن تؤكد له الجملة فنقول: إن محمدا ناجح فهذا التأكيد هو المقتضى، وإذا خرج الكلام عن الصواب النحوي والملائمة لأذواق المخاطبين خرج عن الإفادة، لذلك يجد المتكلم نفسه ملزما بالإحاطة بنحو العرب وصرفها ومنطقها وطرق تفكيرها، فيقي كلامه من الخطأ حرصا على تحقيق الملائمة معنى ومبنى، وقد حصلت له الملكة على مستوى التراكيب التي تستدعي معرفة واسعة بأصول الكلام وثقافة فنية واجتماعية حيث تحري العملية الكلامية في الفعل اللغوي يجد صاحبه فيه نفسه يخضع كلامه لجملة من الضوابط بشكل تلقائي سعيا للإفهام.

فغدت البلاغة في منظور ابن خلدون تراكيب خاصة يصور فيها المتكلم أحوال الفعل الكلامي والأمور المكتتفة بما محيطا بالحال والحدث معا، إنها تعني المطابقة بين أحوال العالم الخارجي اللامتناهية بكلمات متناهية، " وهنا تظهر عبقرية ابن خلدون في ربطه

¹ - ابن خلدون، المقدمة، ص 595.

² - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 138.

البلاغة بعلم الاجتماع، ومن هذا الجانب يمكن القول أن علم الاجتماع اللسان من مبتكراته ولا يعرف من البلاغيين قبله من عرف البلاغة تعريفا اجتماعيا عندما قال: " إنما هي هيئات وأحوال لواقعات جعلت للدلالة عليها أحوال وهيئات في الألفاظ كل بحسب ما يقتضيه مقامه "، وهو تعريف أقرب إلى الفهم وأجدر بأن يعيد للبلاغة الاعتبار الذي فقدته بسبب تشعب المسالك التي أوقعها فيها المنظرون ¹، إنها حقيقة تصنيف البلاغة نظرية للتواصل والخطاب عامة، ولا سيما أن الاهتمام اليوم يتزايد باللسانيات تداولية والسيمياثيات، ونظرية الخطاب، وكذا الشعرية اللسانية في مجال وصف الخصائص الإقناعية للنصوص وتقويمها ليتم الكشف عن نظرية بلاغية من جهة، والخروج من حصر البلاغة في البعد الجمالي بشكل صارم، بل إن البلاغة تنزع إلى أن تصبح علما واسعا للمجتمع، فاقتحمت جميع المعارف الإنسانية فتكون البلاغة مرادفة للتوصيل دون أية نية للاستمالة والتأثير ²، فأصبحت العلم الواسع الذي يشمل حياة الإنسان كلها، فكل اتصال مقصده إلى التبليغ وإن كان الجاحظ بحق أكثر من فهم طبيعة الاتصال والبلاغة فهما واعيا فكان رائدا في هذا المجال ³، وقد كان ابن خلدون يدرك هذه الحقيقة أيضا فقد سعى إلى بحث أسباب وأحوال العمران البشري وصولا إلى سير فاعليته وعلاّت وجوده ومظاهره المادية والعقلية، وقد أكد الدكتور تمام حسان هذا الطرح من حيث كونه نظر إلى البلاغة في فرعها اللغوي تفيد الإبلاغ والتوصيل، كما رأينا " ريتشاردز يعرف التعريف المدرسي للبلاغة فلم تعد مجرد لعب شكلي بل إنها تسعى إلى البحث في آليات الإدراك الإنساني للوجود. ⁴

¹ - محمد الصغير بناني، البلاغة والعمران، ص 145.

² - هنري بليث، البلاغة والأسلوبية: نحو نموذج سيميائي لتحليل الخطاب، ترجمة: محمد العمري، إفريقيا الشرق، بيروت، 1999، ص 21

³ - جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، تنظر ص 15، وينظر المصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة الحديثة، مجلة الفصول، ع3-4، افريل-سبتمبر، 1987، ص 27 ونصوص تراثية في ضوء علم الإتصال المعاصر، خليل أبوأصبع، ص72.

⁴ - بوعزة محمد، البلاغة بوصفها نظرية للخطاب، مجلة راية مؤتة، ع 1-2، 1994، ص 19.

الخاتمة:

بعد القراءة المتأملة وتسليط الأضواء على نظرة ابن خلدون إلى علوم اللغة العربية وآدابها يستحسن أن يقدم لب البحث بإيجاز شديد.

لا شك أن عبد الرحمن ابن خلدون عبقرية عربية متميزة وعالم موسوعي ذا ثقافة واسعة، وهو المؤسس الأول لعلم العمران (الاجتماع) وإمام مجدد في كثير من الدراسات التربوية والنفسية. تكلم ابن خلدون في كتابه "المقدمة" عن قضايا لغوية وأدبية كثيرة جمعت معارف وجهودا لغوية، علم اللغة، علم النحو، علم البيان استفاد منها كبار العلماء والباحثين على اختلاف مشاربهم الفكرية ولهذا ألفينا ابن خلدون يلح في مواضع كثيرة على ضرورة اكتساب ملكة العربية حفظا وسماعا عن لغة العرب الأوائل واحتذاء لمناحي القول عندهم، وهذا منهج قويم وجب أن تأخذ به الهيئات التربوية في تعليم اللغات والابتعاد عن نمط التلقين وتحفيظ القواعد.

هذه اللغة تخضع لناموس عام يحكمها ويضبطها وجب أن تساير المجتمعات وتلبي حاجات أبنائها فتضع لنفسها القواعد وليست القواعد هي التي تصنعها. وهنا يتبلور مفهوم النحو كمعرفة ضمنية يتأتاها من يمتلكون اللغة وقد رسخت أصولها لديهم وارتسم في الخيال المنوال الذي ينسجون عليه تراكيبهم بما ينتج أداءات لغوية سليمة نابغة عن كفاية لغوية سليمة أيضا وإن خدشت الملكة فيعني أن الجهاز اللغوي التحتي الذي رسخت في النفس معالمه مخدوش غير سليم وهكذا سائر الملكات. فقد صارت اللغة في علمها الحديث ظاهرة لسانية توجد ضمنا في دماغ متكلميها بفعل الكلام ولا يمكن أن نعثر عليها إلا في الكلام مظهرا مجسدا لها.

ودرس ابن خلدون أيضا اللغة العربية وقد انقسمت إلى لهجات ووصل من ذلك إلى نتيجة تستحق أعظم عناية من الباحثين فيما يتعلق بتصوره لتلك العلاقة القائمة بين لهجات

العرب المعروفة في الأمصار والحواضر فيما أفضى به الناموس الطبيعي لتطور لغتهم
المضرية فجاءت العاميات ثمرة لذلك التطور.

فلزم الأمر أن يكون لتلك نحو خاص وبلاغة خاصة وكل ما تزدان به اللغة من
جمال أدبي.

ولكل شيء إذا ما تم نقصان.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم بوراية ورش عن نافع

- ❖ إبراهيم السمراي، التطور اللغوي والتاريخي، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط3، 1983.
- ❖ إبراهيم خليل، مدخل إلى علم اللغة، دار الميسرة للنشر والتوزيع، ط1، عمان، 2010.
- ❖ ابن جني أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، د ت.
- ❖ ابن رشيق علي أبو الحسن، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، 2004.
- ❖ ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، تح، عبد المتعال الصعيدي مطبعة علي صبيح، مصر، القاهرة 1953م.
- ❖ ابن منظور، لسان العرب، تح، عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، مصر،
- ❖ أبو لحيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د ت.
- ❖ أبو القاسم الزجاجي، الإيضاح في طل النحو، تح: مازن المبارك، دار النفائس، طه، بيروت (1402 هـ - 1982م).
- ❖ أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، مصر، 1937.
- ❖ أحمد الشايب، الأسلوب، مكتبة النهضة المصرية، مصر، ط6، 1966.
- ❖ أحمد أمين، ضحى الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، مصر 1997.
- ❖ أحمد حساني، مباحث في اللسانيات، ديوان المطبوعات الجامعية، 1999.
- ❖ احمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات دار الفكر ط1 سوريا، دمشق 2001.
- ❖ أحمد مختار عمر، علم الدلالة عالم الكتاب، ط1، مصر القاهرة، 1995.
- ❖ أحمد مطلوب، البلاغة والتطبيق، وزارة التعليم العالي، بغداد، ط1، 1982.
- ❖ الباقلائي، إعجاز القرآن، تحقيق: أحمد صقر، دار المعارف، 1963.
- ❖ بدوي طبانة، البيان العربي، دار العودة، بيروت، ط5، 1972.

- ❖ تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، مكتبة الأنجلومصرية، 1958.
- ❖ الجاحظ عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق: محمد عبد السلام هارون، مطبعة دار التأليف، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1968.
- ❖ جبار مختار، البلاغة والأسلوبية في المبادئ الأساسية، جامعة وهران، 2003.
- ❖ جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي، تاريخ الخلفاء، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط2 قطر، دت.
- ❖ جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 2000.
- ❖ حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن خوجة، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، 1966.
- ❖ حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب: أسسه وتطوره إلى القرن السادس، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، 1980.
- ❖ حنفي بن عيسى، محاضرات في علم النفس اللغوي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
- ❖ الخطيب القزويني، الإيضاح، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت - لبنان، (1424هـ - 2003م) ج1.
- ❖ الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق وضبط، محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.
- ❖ الرافي، تاريخ آداب العرب، دار الكتب العلمية، ج1، ط1، 2000.
- ❖ الزبيدي الأندلسي، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر 1973.
- ❖ زين كمال الخويسكي لسانيات من اللسانيات، دار المعرفة، ط5، 1975.
- ❖ السيد أحمد خليل، المدخل إلى دراسة البلاغة العربية، دار النهضة العربية، مصر، 1968.
- ❖ شرفي عز الدين، النحو والصرف، دار شرفي للطباعة والتوزيع، دط، 2005.

- ❖ شفيح السيد، البحث البلاغي عند العرب، دار الفكر العربي، ط2، مدينة نصر القاهرة، 1416هـ/1996م.
- ❖ شوقي ضيف، المدارس النحوية، دار المعارف ط7 كورنيش النيل القاهرة.
- ❖ صالح الكشو، مدخل في اللسانيات، الدار العربية للكتاب، 1979.
- ❖ صالح بلعيد، النحو الوظيفي، ديوان المطبوعات الجامعية، دط، الجزائر، 1994.
- ❖ صلاح فضل، علم الأسلوب: مبادئ وإجراءاته، دار الشروق، 1998.
- ❖ الطيب دبه، مبادئ اللسانيات البنيوية دار القصة للنشر، الجزائر، 2001.
- ❖ عباس حسن، اللغة والنحو بين القديم والحديث، دار المعارف، مصر، 1966.
- ❖ عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، تح: علي عبد الواحد وافي دار النهضة ط3، القاهرة، مصر، دت، ج3.
- ❖ عبد الرحمن محمد بن خلدون، المقدمة، تح: لوان باخراج جديد، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت ط1، 2003.
- ❖ عبد السلام المسدي وعبد القادر المهدي وحماي حمود، النظرية اللسانية والشعرية في التراث العربي، الدار التونسية للنشر، المطبعة العربية، 1985.
- ❖ عبد السلام المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، الدار التونسية للنشر، المطبعة العربية، تونس، ط1، 1986.
- ❖ عبد السميع احمد، المعاجم العربية دراسة تحليلية، دار الفكر العربي، دط، لبنان، دت.
- ❖ عبد الصبور شاهين، في علم اللغة العام، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، ط2، مصر، 1985.
- ❖ عبد القادر الفهري، اللسانيات واللغة العربية، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1985.
- ❖ عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تقديم: مصطفى شيخ مصطفى وميسر عقاد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 2004.
- ❖ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تقديم علي أبورقية، طبع المؤسسة الوطنية للفنون، 1991.

- ❖ عبد الله شريط، الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1982.
- ❖ عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، دط، بيروت، د ت.
- ❖ عبده الراجحي، فقه اللغة في الكتب العربية، دار المعرفة الجامعية، ط2، القاهرة، م 1995.
- ❖ فايز الداية، علم الدلالة العربي، دار الفكر العربي، ط2، بيروت، لبنان، 1996.
- ❖ الفرزدق، ديوان الفرزدق، تح علي فاعور، دار الكتب العلمية، ط1 بيروت 1987، ج2.
- ❖ فندريس جوزيف، اللغة، تعريب: عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلومصرية، 1950.
- ❖ القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجبل، بيروت، 1969 ط3، د.ت.
- ❖ مازن الوعر، قضايا أساسية في اللسانيات، ط1، 1981.
- ❖ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3، مصر، 1301 هـ، ج3.
- ❖ محمد الصغير بناني، البلاغة والعمران عند ابن خلدون، ديوان المطبوعات الجامعية، 1996.
- ❖ محمد الطنطاوي، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، دار المعارف، ط2، النيل، القاهرة.
- ❖ محمد حسن عبد العزيز، مدخل إلى علم اللغة، دار الفكر العربي، د ط، مدينة نصر، القاهرة، 2000.
- ❖ محمد حسين علي الصغير، الموسوعة الصغيرة: علم المعاني بين الأصل النحوي والموروث البلاغي، دار الشؤون الثقافية العامة، 1979.
- ❖ محمد زغلول سلام، النقد الأدبي عند العرب حتى نهاية القرن 4 هـ، مطبعة أطلس، القاهرة، دار المعارف، 1982.

- ❖ محمد صغير بناني، النظريات اللسانية والأدبية والبلاغة عند الجاحظ، ديوان المطبوعات الجامعية، 1983.
- ❖ محمد عيد، الملكة اللسانية في نظر ابن خلدون، دار الثقافة العربية للطباعة، 1979.
- ❖ محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، دار النهضة، مصر، 1969.
- ❖ محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دار الفكر العربي، ط2، القاهرة، 1997.
- ❖ محمود السعران، علم اللغة، دار الفكر العربي، القاهرة، 1962.
- ❖ محمود سليمان ياقوت، النحو العربي، دار المعرفة الجامعية، دط، 1994م.
- ❖ مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، طبعة دار الهداية، ج28.
- ❖ منقور عبد الجليل، علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، د ط، دمشق، 2001.
- ❖ نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1962.
- ❖ نايف الخرماء، أضواء على دراسات لغوية، 1978.

ثالثا: المذكرات

- ❖ نسيمة نابی، مناهج البحث اللغوي عند العرب في ضوء النظريات اللسانية، مذكرة لنيل درجة الماجستير، تيزي وزو، 2011 / 2010 م.

رابعا: المواقع الإلكترونية

- ❖ معجم المعاني الجامع - معجم عربي عربي (www.almaany.comar) dict ar-
- جهود محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين.
- ❖ مفهوم اللغة وخصائصها الصحفي نت، Asafhi.yooh.comalsafhinet اللغة العربية

❖ محمد على يونس، فروع اللسانيات،

<http://www.ta.satub.com/montada.f39/topic13.htm>

فهرس المحتويات

الصفحة	المحتوى
	شكر
	الإهداء
أ	مقدمة

الفصل الأول: الجهود اللغوية مفهومها وأشكالها عن العرب

02	المبحث الأول: حد كلمة "الجهود" لغة واصطلاحاً
02	المطلب الأول: حد كلمة "الجهود" في اللغة
03	المطلب الثاني: حد كلمة "الجهود" في الاصطلاح
03	المبحث الثاني: مفهوم اللغة وخصائصها
03	المطلب الأول: مفهوم كلمة "اللغة" في اللغة
04	المطلب الثاني: مفهوم كلمة "اللغة" في الاصطلاح
07	المطلب الثالث: خصائص اللغة ومنهجها
09	المبحث الثالث: أشكال الجهود اللغوية عند العرب
12	المطلب الأول: الجهود النحوية
23	المطلب الثاني: الجهود الدلالية
34	المطلب الثالث: الجهود البلاغية
41	المطلب الرابع: الجهود الصوتية

الفصل الثاني: الجهود اللغوية عند ابن خلدون من خلال كتابها المقدمة

46	المبحث الأول: علم اللغة
46	مقدمة
48	اللغة بين الاصطلاح والتوقيف
50	دواعي التوسل باللغة
53	اللغة ظاهرة اجتماعية
57	في البحث اللغوي الحديث
59	اكتساب ملكة اللغة
64	اللغة صناعة من صناعات العمران
70	اللغة- الكلام
72	مفهوم الكلام عند ابن خلدون
75	الحرف عند ابن خلدون
75	دور العصبية في سلامة الملكة واستمرارها
78	المؤثرات الدينية والسياسية والاجتماعية في اللغة
81	المبحث الثاني: علم النحو
81	ظروف نشأة علم النحو
84	التمييز بين المنهجين في درس النحو
86	موقف ابن خلدون من النحاة
89	النحو دعامة في عملية النظم
92	الدعوة إلى العناية بلغة الأمصار

99	المبحث الثالث: علم البيان
102	البلاغة بين الطبع والصنعة
104	حصول ملكة البلاغة بتمام ملكة النحو
109	مفهوم البيان
112	علم البيان
117	علم المعاني
122	الخاتمة
124	قائمة المصادر والمراجع
130	فهرس المحتويات

المخلص:

تتاول هذا البحث موضوع الجهود اللغوية عند ابن خلدون من خلال كتابه المقدمة. ومن أهم ما جاء عن علوم اللسان أنها تقتصر على أربعة علوم: علم اللغة، علم النحو، علم الأدب، علم البيان التي ارتكز عليها بحثنا.

وتبرز أهمية هذه الجهود في اللغة العربية حيث أنها تفتح للدارس مجالات علمية واسعة.

الكلمات المفتاحية: الجهود، ابن خلدون، علوم اللسان.

Résumé

Cette recherche porte sur le sujet des efforts linguistiques chez "Ibn Khaldoune" par son œuvre *l'introduction* parmi ses travaux les plus importants. La science de linguistique basée sur quatre disciplines: science du langage, la syntaxe, les figures de style, la littérature. Elle sont les éléments par lesquels notre recherche est basée.

L'importance de ces efforts dans la langue arabe où il ouvre à la leçon des larges domaines scientifiques.

Les mots clés: les efforts, science de la linguistique, Ibn Khaldoune.